

فاطمة الزهراء والصاطميون

عباس محمد العقاد

طبعة جديدة منقحة



اسم الكتاب: فاطمة الزهراء والقاطميون.
المؤلف: عباس محمود العقاد.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الخامسة - سبتمبر 2006م.
رقم الإيداع: 2003 / 16083
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2413-0

الإدارة العامة للنشر 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 02(3466434-3472864) فاكس: 02(3462576) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmistr.com

المطباع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 02 8330287 - 8330289 فاكس: 02 8330296
البريد الإلكتروني للمطباع: Press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة -
القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة
ت: 02 5908895 - 5909827 فاكس: 02 5903395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 03 5462090
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 050 2259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmistr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر



أنسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تمهيد

ترد الإشارة إلى الوراثة في موضع شتى من هذه الصفحات التالية، وننوع علىها في مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار، ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية.

وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسي وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعترة^(١) النبوية على التخصيص.. ومن أمثالنا في الصعيد الأعلى ما معناه أن البيت إذا احتاج إلى الخبز فهو أولى به من الجامع.

ولدت لأبوين من أهل السنة: أبي على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبي حنيفة، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهباً إلى المسجد القريب أو عائداً منه إلى داره.

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وأله، فمولى النبي حفلة سنوية في البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها؛ لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها. وأسماء النبي وأله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار؛ لأنها أسماء إخوته أجمعين: محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس، وشقيقتي الوحيدة اسمها فاطمة، وأسمى أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير الأسبق: عباس حلمي الثاني كما كان يتوهم بعض معارفى؛ لأننى ولدت قبل ولادته، وأبنته في المدرسة أن ألقى بلقب «حلمي» جريأا على ما تعودته المدارس في تلك الحقبة، وبقيت منسوباً إلى اسم «محمود» وهو كذلك من أسماء النبي، ولم يكن لأبي إخوة، وإنما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة باسم زينب، وأولادهم ينادون بالأسماء التي تغلب عليها هذه النسبة الشريفة.

(١) العترة بكسر العين: نسل الرجل وأقرياؤه الأدرين.

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وأله عليهم سلام الله ورضوانه، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة؛ لأنهم يَدِينون بِدُسْتُورِ السُّنَّةِ النَّبُوَّيَّةِ، ولكنَّهُ كان في بيَتِنَا أَشَبَّهُ بالعاطفة النفسيَّةِ منه بِالْأَدَابِ المذهبيةِ، فاستفدت منه كثِيرًا في دراسة تاريخ الإسلام.

استفدت منه أَنِّي كنت شديد التراث في سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القدِيمَةِ الَّتِي كانت تقوم على إنكارِ حقٍّ، أو إنكارِ فضلٍ؛ أو إنكارِ نسبٍ، أو إنكارِ ما من ضرُوبِ الإنكارِ الَّتِي تمسُّ تواريَخَ أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبُوَّيِّيِّ من بعيدٍ أو قرِيبٍ..

ولم أستفِدْ منه بِحَمْدِ اللهِ كراهيَةً أحدَ ذَيْ حَقٍّ أو ذَيْ فَضْلٍ؛ لأنَّ قدَاسَةَ العَظَمَةِ الإنسانية تحجب عنِّي جميعَ هذِهِ الصُّغَارِيَّاتِ الَّتِي تمسُّ تواريَخَ الْعَظَمَاءِ أَجْمَعِينَ، وَولَعِي بِدُرَاسَةِ تواريَخِ الْعَظَمَاءِ مِنْ طفولَتِي الْبَاكِرَةِ عَصْمَنِي بِحَمْدِ اللهِ مِنْ غَوَائِلَ^(١) هذِهِ الصُّغَارِ^(٢)..

ومن أثر هذه الوراثة في ذهني أَنِّي لم أصدق ما كان في حكم الواقع المقرر عن سياسة الإمام، وأنه لم يكن له في السياسة نصيب، فبحثتها بحث الإشاعات ولم أعطها من بادئ الرأي شأنًا أكبر من الإشاعات التي تسرى على الأفواه بغير دليل، أو يجيئها الدليل المختلُّ من صنْعِ أصحابِ المِنافعِ والمَأْرُبِ في سياسةِ الحاكم الغالب، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين..

* * *

ومن أثر هذه الوراثة في ذهني أَنِّي قارنت سير العظماءِ الإسلاميَّينِ و«النبوَّيَّينَ» لأرضيِّ ذهني، ولم يقنعني أن أرضيَّ بها عاطفة لا أستمد من ذهني شواهدَها وأياتِها، فعظماءُ الإسلام عندِي أعلامٌ إنسانيةٌ بازخةٌ تخلوُها مَكَانُ العَظَمَةِ مناقبٌ يُكَبِّرُها المسلمُ وغيرُ المسلم، وليسَتْ غَايَةُ الْأَمْرِ فِيهِمْ أَنَّهُمْ أَضْرَحةُ للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام.

وبهذه النَّزَعةِ الموروثةِ أطْرَقَ بَابَ الْكَلَامِ فِي حِيَاةِ الزَّهْرَاءِ، فَإِنَّهَا - سلامُ اللهُ عَلَيْهَا - قد تكتبُ لَهَا ترجمةً لأنَّهَا بَنْتُ مُحَمَّدٍ، أو تكتبُ لَهَا ترجمةً لأنَّهَا

(١) غوايل: جمع غائلة وهي الداهية والشر المهلك.

(٢) الصُّغَار: بفتح الصاد: الذل والضيَّم.

زوج على، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة؛ ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي تتبع آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير.

* * *

وهذا الذي قصدت إليه بكتابية هذه السيرة، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين إلى فاطمة، وعلى قلة الأخبار التي حفظت عن شخص فاطمة – عليها السلام – أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكنني أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها.

ونعود إلى الوراثة فنقول إن أول ما نضيفه إلى بيان قوة اليقين، أو بيان القوة الإيمانية في نفس الزهراء، أنها ورثتها من أم وأب، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث، ولكنه إذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت أصلاته مدى متصل الآثار فيما ورثته هي، وفيما توارثه الأعقاب من بعدها، وما أخلده من ميراث!

* * *

القسم الأول

فاطمة الزهراء

- أم الزهراء ..
- نشأتها ..
- زواجها ..
- بلاغتها ..
- في الحياة العامة ..
- وفاتها ..
- شخصية الزهراء ..
- الذرية الفاطمية ..



حفظ التاريخ لنا قليلاً من أخبار السيدة خديجة - أم الزهراء- رضي الله عنها، ولكن هذا القليل كاف للتعریف بها، وبما يمكن أن تورثه بناتها من الخلائق والسمجات؛ لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الإفاضة في الأخبار إلا في التفصیل.

ومن جملة الأخبار القليلة التي حفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة، وأنها - رضى الله عنها - كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية: عاطفة المحبة الزوجية، وعاطفة الأمومة، وعاطفة الإيمان..

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش؛ لأنها جمعت إلى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة، وأهلها جميعاً لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم إلا كان علماً في الحكمة والدراءة أو في الشجاعة والشهم، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام.

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهد، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المُعرق في النبل والسيادة، فهي فاطمة بنت هالة التي ينتهي نسبها كذلك إلى لؤي بن غالب، وهالة بنت قلابة التي ينتهي نسبها إلى ذلك الجد الأعلى، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوفرة كما تقدم، فكانت قافلتها إلى الشام تُغدو قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام.

وأهم من هذا جميعه بالنسبة إلى زوجة نبئ، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة، أنها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربيّة..

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبعاً الآخر حين أراد أن يحتمل الركـن الأسود معه إلى اليمن، فتـتصدى له ولم يرهـب بـأسه غـيرة على هذا المنسـك^(١) من مناسـك دـينـه،

(١) المنسك: الموضع يأته الإنسان ويتردد إليه في خير كان أو غيره، ومناسك الحج عباداته.

وقال السهيلي في الروض الأنف: «إن تُبَعَا رُوعَ في منامه ترويغاً شديداً حتى ترك ذلك وانصرف عنه» فلا يبعد أن روعة خويلد ومرأه وهو ينذر العاهم بالغضب الإلهي إذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التَّبَعَ فتراه لـه من المخوفات في منامه ما أرهبه وثناه عن عمله.

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذي رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها، فركبت إلى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها؛ إذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون بأمرهم إلى كاهن أو كنيسة، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك في عبادة الأصنام وتجنح به إلى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة. وينسب إليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبهه شعر أمية بن أبي الصلت، ويروى كتاب السيرة أنه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له، وقال لها: «إنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشيطان لا يجرئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه...».

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روایات مختلفة، لا يعنينا أن نستقصيها: لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعامل اليمن والمخاطرة بنفسه غيره منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التي ورثتها الأسرة، من كان منهم على الجاهلية، ومن تحول عنها إلى النصرانية. ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى أنها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والإسرائيلية؛ لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سالت غيره من كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان..

وقد روى عنها كلام قالته للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحى فعاد إليها، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي!» فكان كلامها - الذي أرادت أن تسرى به عنه وتبثت به جنانه - آية على العلم بباب الدين علماً يُستكثر على الناشئين في أديان الجاهلية، فإن الدين لا يعود أن يكون عندهم كهانة وسحراً، ولكنها أدركت

من حقيقة الدين ما لا يدركه عامة قومها، فعلمت أنه فضيلة وأن النبي الجدير أن يُنْدَب له هو الرجل الذي اتسم بالفضيلة، وقالت للنبي وقد آمنت أنه وحى وليس بعارض من عوارض الجنة: «كلا! والله ما يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل^(١)، وتكتب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة».

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين، ولو لا أنها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم.

وهي على هذا طبيعة مميزة، وليس طبيعة منساقة إلى السمع والتقليد، فمما نقل عنها أنها طلبت إلى النبي عليه السلام أن يخبرها إذا جاءه جبريل، فلما أخبرها قالت له: «قم فاجلس على فخذى اليسرى» ففعل، فقالت: «هل تراه؟» قال: «نعم». قالت: «فتحول إلى فخذى اليمنى» وسألته: «هل تراه؟» قال: «نعم». فألفت خمارها^(٢) وسألته، فقال: «الآن لا أراه..» قالت: «يا بن العم اثبت وأبشر، فإنه ملك وما هو بشيطان».

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة في عصرها أن تتحن به حقيقة الوحي. ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم في العصر الحاضر، فإن البديهة لا تشغله الوحي الديني والنظر إلى جسد الأنثى في وقت واحد، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة، فلا موجب إذن لشك المتشككين من المتحذلقين في صحة هذه الأحاديث.

وقد رزقت هذه السيدة الباردة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل^(٣) والمال الجزيل، وصدق من قال إن السعادة لا تتم، فإن هذه السيدة التي تم لها غاية ما تتنبه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة في حياتها الزوجية، فإنها تزوجت في صباحها برجل من هامات^(٤) مكة هو أبو هالة بن زراة

(١) الكل: الثقل لا خير فيه.

(٢) الخمار: بكسر الخاء: النصف، وهو ما تغطى به المرأة رأسها.

(٣) الأثيل: القديم، المؤصل.

(٤) هامات: الهامة: الرأس من كل شيء.

فمات ولها منه ولد صغير سُمِّي باسم هند (لعله دفعاً لأذى الحسد) وهو الذي تربى مع السيدة فاطمة وقتل في جيش الإمام في وقعة الجمل على أرجح الأقوال، ويُؤثر عنه أوفي وصف للنبي رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله..

ثُمَّ بُنِيَّ بِهَا عَتِيقُ بْنُ عَائِدٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَخْزُومِيُّ، وَاتَّخَلُّفُوا فِي أَىِّ زَوْجِهَا كَانَ الْأُولُّ وَلَكِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ زَوْجٌ لَمْ يُكْتَبْ لَهُ الدَّوَامُ، وَقَدْ أَعْرَضَتْ عَنِ الزَّوْجَ بَعْدِ هَذِينِ الْزَّوْجِيْنِ حَتَّى عَرَضَ لَهَا فِي حَيَاتِهَا الرَّجُلُ الَّذِي أَصْبَحَتْ بِفَضْلِهِ عَلَمًا مِّنْ أَعْلَامِ النِّسَاءِ فِي التَّارِيْخِ، وَلَا شَيْءَ أَدْلُّ عَلَى رِجَاحَةِ لَبِّهَا مِنْ أَنَّاتِهَا^(١) فِي اخْتِيَارِ زَوْجِهَا، مَعَ تَهَافُتِ الْخُطَابِ عَلَيْهَا وَرِجُوعِ الْأَمْرِ إِلَيْهَا فِيمَا تَخْتَارُ.

أَمَا كَيْفَ اتَّصَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعَمَلِ فِي تِجَارَتِهَا فَتَكَادُ الْأَقْوَالُ تَتَقَوَّلُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ بِمَشُورَةِ مِنْ عَمِّهِ أَبِيهِ طَالِبًا، وَأَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لَهُ فِي سَنَةِ مِنِ الْسَّنِينِ: «يَا ابْنَ أَخِي، أَنَا رَجُلٌ لَا مَالَ لِي وَقَدْ اسْتَدَّ عَلَيْنَا الزَّمَانُ، وَهَذِهِ عِيرُ قَوْمٍ كَمَا حَضَرَ خَرْوَجُهَا إِلَى الشَّامِ، وَخَدِيجَةُ بَنْتُ خَوَيلَدٍ تَبَعَّثُ رِجَالًا مِّنْ قَوْمِكَ فِي عِيرِهَا فَلَوْ جَنَّتْهَا فَعَرَضَتْ نَفْسَكَ عَلَيْهَا لَأَسْرَعْتُ إِلَيْكَ». وَقَدْ تَرَدَّ النَّبِيُّ فِي مَفَاتِحَتِهَا بِهَذَا الْطَّلَبِ فَذَهَبَ إِلَيْهَا أَبُو طَالِبٍ، فَأَجَابَتْهُ عَلَى رِضْيٍ وَكَرَامَةٍ، وَقَالَتْ لَهُ: «لَوْ سَأَلْتَ ذَلِكَ لَبِّيْدَ بِغَيْضِ لَأْجِبَنَاكَ، فَكَيْفَ وَقَدْ سَأَلْتَ لَقَرِيبِ حَبِّيْبٍ؟».

وَقَدْ سَافَرَ النَّبِيُّ إِلَى الشَّامِ وَبَاعَ وَأَشْتَرَى وَرَبَحَ لَهَا أَضْعَافَ مَا كَانَتْ تَرِيعَ فِي كُلِّ عَامٍ، وَأَعْجَبَهَا مِنْهُ أَنَّهُ حِينَ عَادَ مِنَ السَّفَرِ وَكُلَّ إِلَى غَلَامَهَا مِيسَرَةً – الَّذِي كَانَ بِصَحْبَتِهِ – أَنْ يَسْبِقَهُ لِيَبْشِرُهَا بِعُودَةِ الْقَافِلَةِ وَوَفْرَةِ كَسْبِهَا، فَأَكَبَرَتْ مِنْهُ مَرْوِعَتُهُ وَأَمَانَتُهُ وَحْدَتُهُ، وَأَحْبَبَهُ وَوَدَّتْ لَهُ يَخْطُبُهَا مَعَ الْخُطَابِ، وَعَرَضَتْ لَهُ بِذَلِكَ فِي حَدِيثٍ أَقْرَبَ إِلَى التَّلْمِيْخِ مِنْهُ إِلَى التَّصْرِيْخِ.

وَأَحْجَمَ النَّبِيُّ حِيَاءً وَأَحْجَمَتْ هِيَ عَنِ التَّصْرِيْخِ، ثُمَّ أَوْعَزَتْ إِلَى صَدِيقَةِ لَهَا – هِيَ نَفِيْسَةُ بَنْتُ مَنِيَّةٍ – أَنْ تَشْجَعَهُ عَلَى الْخُطَبَةِ، فَسَأَلَتْهُ نَفِيْسَةُ ذَاتِ يَوْمٍ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ؟» قَالَ: «قَلْةُ الْمَالِ». قَالَتْ: «فَإِنْ كُفِيتْ وَدُعِيْتِ إِلَى الْمَالِ وَالْجَمَالِ وَالْكَفَاءَةِ؟» قَالَ: «وَمَنْ تَكُونُ؟» قَالَتْ: «خَدِيجَةُ!» قَالَ: «فَانْهَبِي فَأَخْطُبُبِهَا».

وَرَوَى الزَّهْرَى صَاحِبُ أَقْدَمِ السَّيِّرِ أَنَّ «رَسُولَ اللَّهِ ﷺ» قَالَ لِشَرِيكِهِ الَّذِي كَانَ يَتَجَرُّ مَعَهُ فِي مَالِ خَدِيجَةَ: هَلْ فَلَنْ تَحْدُثُ عَنْدَ خَدِيجَةَ، وَكَانَتْ تَكْرَمُهُمَا

(١) أَنَّاتِهَا: الْحَلْمُ، وَالرَّفِيقُ، وَالْتَّوْدَةُ.

وتتحفهم، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشة^(١) - هي الكاهنة - فقالت له: جئت خاطبها يا محمد؟ فقال: «كلا». فقالت: ولم؟ فواهله ما في قريش امرأة - وإن كانت خديجة - إلا ترك كفوا لها...».

وأشبه الأشياء بأن يكون - بين الروايات المتعددة - أن النبي عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزه قوم، وقال وهو يفاتح عمها في الأمر: «إن محمداً من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقولاً، وإن كان في المال قللاً فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويد رغبة ولها فيه مثل ذلك» فقال عمها عمرو، أو ابن عمها ورقة بن نوفل في رواية أخرى: «هو الفحل الذي لا يقدر أنفه»^(٢). وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله، ولم يتزوج عليها في حياتها إلى أن قارب الخمسين..

ومن خديجة ولد للنبي جميع أبنائه ما عدا إبراهيم ابنه من مارية القبطية، وهم: القاسم، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال.

وكان النبي عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة في نحو الخامسة والعشرين من عمره، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول إنها كانت في الأربعين أو الخامسة والأربعين، ومنهم ابن عباس يقول: «إنها كانت في الثامنة والعشرين ولم تجاوزها». وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة: لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها، وأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد، عدا من جاء في بعض الروايات أنهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم..

وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها، لجمالها ومالها وعراقتها بيتها وطمأنينة أهلها، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجتين لم يكتب لهما طول الأمد، وإن كنا لا نعرف على

(١) مستنشة: استنشأ الرجل: بحث عنها وتطلبها وتتبعها.

(٢) يقدر أنفه: قدر الرجل صاحبه: منعه وكفه. والفرس كبه.

التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبي هالة ومن عتيق بن عائذ، فمن الكلام عن ذريتها منها يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام..

﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾

وأمامنا ألف مصدق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم الذي تنزلت عليه تلك الحكمة الإلهية.

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين، خلافاً لما جرى عليه العرف بين علية القوم، وهو من تلك العلية في الذوابة^(١) العليا.

ولقد عزت ال�ناء الزوجية على السيدة الغنية الوضيئه^(٢) الذكية، فتأيمت^(٣) في نحو الثلاثين.

ولو كثر مال محمد لعله كان يبني قبل العشرين بكريمة عasher تصغره ببعض سنين، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد..

ولو تيسر ال�ناء الزوجية لخديجة لعلها كانت في غنى عن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام، ولكن لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد.. أيهما كان خيرا؟

هذا الذي كان كما كان، أو ذاك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوحة الحظ الحسن الرشيد؟!

لم تمض سنوات على هذه الأصرة^(٤) القدسية التي جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارئ لم يدخل لهما في حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفظت لأداء الأمانة الجلى التي جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين..

فلم يجد محمد إلى جانبه فتاة غريبة تفزع ولا تدرى ما تصنع، بل وجد إلى جانبه قلباً كريماً وروحًا عظيمًا وسكنًا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن إليه خشية فواده، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن إليها أنها حنكة السن

(١) الذوابة: ضفيرة الشعر المرسلة. ومن الجبل أعلى، وفلان ذوابة قومه، أعلام وأشرفهم.

(٢) الوضيئه: الحسنة النظيفة.

(٣) فتأيمت: المرأة بلا زوج؛ بكرًا أو ثيباً.

(٤) الأصرة: حبل صغير يشد به أسفل الخباء. وما عطفك على رجل من قرابة أو معروف.

وحنان الأمومة، ولكنه أمان الذي يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة، وما عاقبة الصبر على العرواء^(١) التي تندك لها عزائم وتطيشه أحلام، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء.

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش، ولكن هذا القليل الذي علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة في طلعتها - لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين..

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مختتم أيامه، وظل يتفقداً ويتفقد مواطن ذكرهاها أعواماً بعد أعوام، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام. وإن وفاء كهذا له وحده كفاية المستقصى في التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رعوم، فما من شهادة لإنسانة هي أصدق من دوام الوفاء لها في قلب إنسان عظيم.

* * *

(١) العرواء (بضم ففتح) : قرة الحمى، ومساها أول رعدتها.

نشأتها



إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة
الواحدة..

درجت في دار أبيها، والدار يومئذ مقبلة على أمر جل لم تتجمع بوادره في
غير تلك الدار، وغار حراء.

أمر جل لا تقف جلالته عند جدران الدار، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت
عليها، ولا عند حدود الجزيرة العربية بمعمارها وقفارها، بل هو الأمر الجل الذي
يطبق العالم بأسره عصراً وراء عصور؛ لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التي كانت
يومئذ تختلج في صدر واحد، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام.

ما هذه الصلوات والتسبيحات؟ ما هذه الهينمة^(١) بين الأبوين؟ ما هذا الوجل
وما هذا القنوت^(٢)؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئاً من هذا؛ لأن الطفل لا يستغرب
الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه، وهي لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر
والمقالات.

أكبر الظن أن الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئاً مما كان يحيط بها وهي
تدرج في مهدها، ولكن الطفل الذي يحسب هذه المشاهد من مأثوراته ينفرد
بمأثورات لا تتكرر من حوله، ويتخذ له قياساً للألفة والغرابة منفرداً بين
أقيسة النفوس.

وأكبر الظن أنه ينشأ منطويًا على نفسه، مستخفاً بما يخف له الناس من حوله،
متطلباً من عادات النفوس وطبياعها غير ما يتطلبون.

(١) الهينمة: الصوت الخفي لا يفهم.

(٢) القنوت: القيام في الصلاة على الرجلين، والإمساك عن الكلام فيها.

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد في دار أبيها؛ لأنها لم تجد معها غير اخت واحدة ليست من سنها، وغير أخيها هند، وهو أكبر منها ومن اختها، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان.

وأوشكت عزلة الطفلة الوحيدة أن تكبر معها؛ لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات إخواتها الكبار إلا ما يحزن ويشغل: ماتوا صغاراً وخلفوا في نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبراً مريضاً، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب، ثم لم تثبت الخطبة أن ردت إلى اختين؛ لأنهما خطبتا إلى ولدي أبي لهب، ثم أصبح أبو لهب عدوا للأبوين يمقتهما ويمقتانه، فانتهت خطبة الاختين الشقيقتين بهذا العداء.

جُدُّ من كل جانب تركن إليه، وانطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدل، ملاذها في كل هذا حنان أبوين لا كالآباء: حنان جاد رصين، ونکاد نقول: بل حنان صابر حزين، يشملها به الأب الذي مات أبناوه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذي تأهّب له زماناً ونهض به زماناً ولا يزال يعاني من حمله ما تنوء به الجبال، وتشملها به الأم التي جاوزت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين.

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبيين كبيرين: حنان أخرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق.

وتعلمت الزهراء في دار أبيها ما لم تتعلم طفلة غيرها في مكة: آيات من القرآن وعادات يأباهما من حولهم العابدون وغير العابدين.

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمها غيرها من البنات في حاضرة الجزيرة العربية، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد، وأنها كانت تقوم وحدها بصناعة بيتها ولا يعينها أحد في أكثر أيامها.

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها، فلم تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها، ولم تتحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلجئها إليه حادث لا ملجاً منه، فلا فضول هنالك في عمل ولا في مقال..

وسماء صع ما جاء فى الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعته من على، وأنها صلت به ووعلت أحكام فرائضه، وأنها وعلت كل ما وعلته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات.

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف^(١): نشأة وقار واكتفاء، وعلمت مع السنين أنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه، فوثقت بكمالية هذا الشرف الذى لا يدانى، وثبتت بين انطواطها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء.

سكتت هذه النفس القوية جثمانا يضيق بقوتها، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف، فإنهما مزيف متعب للنفس والجسم معا، لا قوام له بغير راحة واحدة: هى راحة الإيمان، وهذا هو التوفيق الأكبر فى نشأة الزهاء، فإنها نشأت فى مهد الإيمان: إذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها وتحول جثمانها.

* * *

(١) اعتكاف: اعتكاف فى المسجد: أقام به، وحبس نفسه فيه.

زواجها



قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية: «- إن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنه الكلبى فقال هشام لعبد الله: يا أبا محمد! كم بلغت فاطمة من السن؟ قال: ثلاثين سنة، فقال الكلبى: خمساً وثلاثين. فقال هشام: اسمع ما يقول، وقد عنى بهذا الشأن. فقال: يا أمير المؤمنين: سلنى عن أمى وسل الكلبى عن أمه». وتوافق هذه الرواية روايات متعددة، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبلبعثة محمد عليه السلام ببعض سنوات، فأصبح الأقوال بين الأخبار المتضاربة أنها عليها السلام قد تزوجت وهي في نحو الثامنة عشرة.

ومن جملة الأخبار يتضح أن النبي عليه السلام كان يبقيها لعله رضى الله عنه. فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما: أنتظرا بها القضاء، أو قال إنها صغيرة كما جاء في سنن النسائي.

وفي أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رضى الله قال عمر: «أنت لها يا على!» فقال على: «ما لى من شيء إلا درعى أرهنها» فزوجه رسول الله فاطمة، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت، ثم دخل عليها رسول الله فقال: «مالك تبكين يا فاطمة؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلما».

وفي رواية أن علياً لما سأله النبي: «هل عندك من شيء؟» قال: «كلا». فقال له: «وأين درعك الحطميه؟» أى التي تحطم السيف، وكان النبي قد أهداه إياها، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده، فاجتمع له منها أربعين درهماً..

جاء في أنساب الأشراف للبلذري: «فباع بعيراً له ومتاعاً فبلغ من ذلك أربعين درهماً ويقال أربعين درهماً، فأمره أن يجعل ثلثها في الطيب وثلثها في المتعة ففعل...».

ثم استطرد صاحب الأنساب إلى رواية أخرى، يرتفع سندها إلى على نفسه قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: «أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته فقلت: والله ما لي شيء، ثم ذكرت صلته وعائذته فخطبتها إليه» فقال: «وهل عندك من شيء؟» قلت: «لا» قال: «فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟» قلت: هي عندي! قال: فأعطيها إياها».

وفي طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة: «هي لك يا على! لست بـدجال» يعني لست بـكذاب. وذلك أنه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها. ويروى عن النبي أنه قال لفاطمة: «ما أليت^(١) أن أزوجك خير أهلى».

وجهرت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (إناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان.. وعن أنس بن مالك أن النبي قال له: انطلق وادع لي أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار، قال فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته المعبد بقدرته، المطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسمانه، الذي خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ. إن الله عز وجل جعل المصاورة نسبا لا حقا وأمرا مفترضا وحكتها عادلا وخيرا جامعا، أوشج^(٢) بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل: وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قدير، وأمر الله يجري إلى قصائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنه ألم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على، على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفرضية الواجبة، فجمع شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكم وآمن الأمة، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

قال أنس: «وكان على عليه السلام غائبا في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا، فقال انتبهوا. فبینما نحن كذلك إذ أقبل على فتبسم إليه رسول الله ﷺ وقال: يا على! إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة، وإنى زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة، فقال على: رضيت يا رسول الله! ثم إن عليا خر ساجدا شكر الله، فلما رفع رأسه قال الرسول ﷺ: بارك الله لكما وعليكم وأسعد جدكم وأخرج منكم الكثير الطيب».

قال أنس: «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب».

(١) أليت: قصرت وأبطأت.

(٢) أوشج: أوشج الله بين القوم: ألف وخلط.

ومن المرجح جدًا أن الزهراء قد استشيرت في زواجهها على عادة النبي عليه السلام في تزويج كل بنت من بناته كما جاء في مسند ابن حنبل، فيقول لها: فلان يذكرك، فإن سكتت أمضى الزواج، وإن نقرت الستر علم أنها تأباه، وفي زواج الزهراء قال لها: يا فاطمة! إن علياً يذكرك. فسكتت، وفي روايات أخرى أنه وجدها باكية، فذاك حيث قال رسول الله : «ما لك تبكيين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلماً».

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الزواج، ولكنهم قالوا إنه كان بعد الهجرة، وبعد غزوة بدر.. وأرجح الأقوال كما قدمنا أنها كانت في نحو الثامنة عشرة، وزوجها أكبر منها ببعض سنوات..

توخيينا في اقتباس هذه الأخبار أن نرجع منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين، فما من خبر من هذه الأخبار وصل إلينا في كتب السيرة على رواية واحدة، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرضى والإنكار، فلا مناص من الأخذ بال الأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال.

ونحن نعني بال الأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائماً على المقابلة والموازنة والرجوع إلى حوادث الزمن وعادات أهله، وإلى الأخرى أن يصدر ممن أسنده إليهم القول أو نسب إليهم العمل.. فإن الأخبار إذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه.

فمن المعقول مثلاً أن يؤثر النبي علياً بفاطمة وهم ربيبان في بيئه واحدة، ومن المعقول أن يؤثر زواجهها من علىٌ على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر لزوجات الشيفين، ومن المعقول أن يتتردد على في خطبتها لفقره. ولا يخالف المعقول ولا المأثور أن يقدم بعد تردد، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لا بد له من عمله، ولا يخالف المعقول ولا المأثور كذلك أن يتأخر الزواج إلى ما بعد الهجرة؛ لأن حياة المسلمين في مكة – قبل الهجرة إلى المدينة – لم تكن حياةً آمنةً ولا استقرار، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم إلى بلد بعيد كالحبشة كلما ملوكوا

وسائل الهجرة، فمن كان متزوجاً قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج، ومن لم يكن فليس أخلق به من إرجاء الزواج إلى حين. ذلك كله هو المعقول المألف، وهو الأوسط الأمثل إذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجح.

إلا أن التاريخ يكتب للاعتبار، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر إلى الحوادث والناس، واستخلاص الحقيقة بما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز. وهذا هنا محل لعتبرتين كأهم العبر في كتابة التاريخ: كتابته في الأزمنة الغابرة، وكتابته في الزمن الحديث.

فأهم العبر التي تستخلص من توارييخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصر ذوق الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكماً قاطعاً في مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات، فما كان من الأخبار مجمعاً عليه أو مقارباً للإجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات، أو فرضاً تقابلها فروض، أو رقمًا ويومنا تقابلها أرقام وأيام بل أعوام، فليس من القصد أن يعطي فوق معياره من الجزم واليقين، وبخاصة حين ينبني عليه اتهام أو قضاء لا يقوم في مسائل كل يوم بغير بينة تنفي كل شبهة وتبطل كل محال.

أما العبرة في تاريخنا العصري فمرجعها إلى كتابة طائفة من العصريين يزعمون أنهم يطبقون روح العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى؛ لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين، ويختلفون أسباب التشويه والتحريف..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير فمن هؤلاء من يطالع في الكتب الدينية التي يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعية أموراً لا شك في أنها من العيوب فلا يحسبها عيوبًا، ولا يتألف منها، بل يعتن فكره ويعنتها تخرجاً وتعويجاً حتى يقبلها، ويفرض قبولها على الناس..

فإذا طالع كتاباً عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثلك هذا التحسين والتزيين، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحسن إلى عيوب، أو بالتنقيب في كل مكان عما يعاب إن لم يجد ما يعيبه في ظاهر السطور والحراف.

وما من شيء يمسخ الدين ويمسخ العلم معاً كما يمسخها هذا الخلق الذميم، فإن الدين لا يعلم الإنسان شيئاً إن لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل^(١) والافتراء، وإن العلم شر من الجهل إن كان يسوم الإنسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع، فليس هذا جهلاً يزول بكشف الحقيقة، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي مكشوفة لديه، فهو شر من الجهل بلا مراء. وفي تاريخ الزهراء مثال للعبرة التي تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء» الذين هم شر من الجهلاء، وأحدهم قد خصص كتاباً لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن «يطبق» ذلك العلم العصري المقلوب، فإذا هو منقلب عليه..

يُؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمناً في الشرق - كتاباً عن الزهراء ليرضى فيه ذلك «العلم العصري» المقلوب، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب، فإذا العيب هو في الإسفاف، وكم في الإسفاف من عيوب، بل من ذنوب!! ومن تفاهاته وسفاسفه^(٢) أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة؛ لأنها كانت محرومة من الجمال، ولم تصدق أن أحداً يخطبها بعد تلك السن، ثم يقول إنها لما عرض عليها النبي الزواج من على سكت هنفية ولكنها لم تسك خجلاً بل دهشة من أن يخطبها خاطب، ثم تكلمت فشكّت؛ لأنها تزوج من رجل فقير!..

لو كان السند الذي استند إليه هذا «العالم» واضحاً ملزماً لقلنا إنها أمانة العلم، ولا حيلة للعالم في الأمانة العلمية!..

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها، وتقابله أسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها؛ لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه.. فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبويين جميلين، وأن أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان. وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال وأن تُحرمه إحدى البنات!

(١) التمحل: تمحل الشيء: طلبه بحيلة وتكلف. ومنه تمحل له غدرأ.

(٢) سفاسفه: السفاسف: الرديء من كل شيء، وما دق من التراب.

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية في إبانها، وال المسلمين بين مهاجر أو مقيم غير آمن، والحال قد تبدل بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمين مقصورة على المسلمين، وهو لاء المسلمين قلة، منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج، فلا حاجة بالمؤلف إلى البحث الطويل ليهتدى إلى السبب الذي يؤخر زواج بنت النبي إلى الثامنة عشرة، ولو كانت أجمل الجميلات..

وفي وسعي كذلك أن يتصور أن النبي يخص بها ابن عمه، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بيته وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية فلا هم في ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه.

كل ذلك قريب كان في وسع «العالم المحقق» أن يراه تحت عينيه، قبل أن يذهب إلى العلة التي اعطلها لتأخير الزواج، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال.. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت إليها؛ لأنها لا تعيب، والسبب الخفي البعيد تشويه غضاضة^(١)، فهو الجدير إذن بالالتفات.

وكأنما كان «العالم المحقق» في حاجة إلى جهالة فوق جهالته، فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة أنه شكاية من فقر على بن أبي طالب، ويستند هذا الفهم إلى رواية البلاذري في أنساب الأشراف، بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجهها على فسكت من الدهشة لا من الخجل، وإنما دهشت لأنها لم تكن تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين.

أفمن المأثور أو من التطبيق العلمي أن تكون الفتاة يائسة من الزواج، مدهوشة من خطبة الخطيب، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظام نفسها على بنى عمومتها الفقراء، وليس لها يومئذ من الأغنياء؟

كلا ! ليس ذلك بالمأثور ولا بالتطبيق العلمي، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى.. فهو إذن أحق بالترجيح من كل تقدير مأثور.

والبلاذري - بعد - لم يذكر شيئاً من هذا وليس في كلامه عن مناقب على أو فاطمة شيء من قبيل الجواب الذي ينسب إلى الزهراء غير روايته الحديث بسنده

(١) غضاضة: النصارة من الشباب والطراة، والمذلة والانكسار، تقول: هو شاب بين الغضاضة، وليس عليك في هذا الأمر غضاضة.

وهو: «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبي إسحاق عن حبشي بن جنادة قال: لما زوج رسول الله ﷺ أرعدت فقال: اسكتي! فقد زوجتك سيداً في الدنيا وإنك في الآخرة لمن الصالحين»..

هذا ما وجدناه في النسخة المنشورة من مخطوطه الأستانة، ومن المطبوعة في أوربه، فتفسير «الرعدة» بذلك المعنى إنما هو من إبداع المؤلف الحصيف!..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه، نصر به لعتبره النافعة في وزن التواريХ العصرية المزعومة، ولا ننبه إليه لقول قائل إن السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال.. فإنه لو صح لما كان فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبرات كما شرفتها أكرم البنات، ولكننا ننبه إليه لأنّه عبرة للمعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء، فيفترى على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم، ويعافه أدب الدين..

ونعود إلى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مأثور ومعقول، فنقول إننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات في آل محمد وآل على، فلم نجد في عصر النبوة غير خبر واحد على قبيل الخبر الذي قيل فيه إن السيدة فاطمة أشارت إلى فقر على حين بلغت خطبته لها، وهو تزوج السيدة أم كلثوم.

وبين الخبرين، مع هذا، بون بعيد..

جاء في أسد الغابة عن حسن بن على بن أبي طالب أنه قال: «لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا: «إنك من قد عرفت سيدة نساء المسلمين وينت سيدتهن، وإنك والله إن أمكنت عليا من رمتك لينكحك بعض أيامه، وإن أردت أن تصيبى بنفسك مالا عظيما لتصيبينه»، فوالله ما قاما حتى طلع على يتكىء على عصاهم، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال: قد عرفتم منزلتكم عندي يا بنى فاطمة وأثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله ﷺ، فقالوا: صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا. فقال: أى بنية! إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيديك، فأنا أحب أن تجعليه بيدي. فقالت: أى أبه! إنى امرأة أرحب فيما يرحب فيه النساء وأحب أن أصيّب مما تصيب النساء من الدنيا، وأنا أريد أن أنظر في أمر نفسي. فقال: لا والله يا بنية! ما هذا من رأيك. ما هو إلا رأى هذين! ثم قام فقال: والله لا أكلم رجلا

منهما أو تفعلين، فأخذنا بثيابه فقال: اجلس يا أبة، فوالله ما على هجرتك من صبر. أجعلى أمرك بيده . فقالت: قد فعلت! قال: فإني قد زوجتك من عون بن جعفر، وانه لغلام، وبعث لها بأربعة آلاف درهم.

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذي يختاره أبوهم - تنتهي بطاعة الحب للأب الذي لا يصبر على غضبه وتدل في سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الإخوة والأباء من عطف وتقدير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير إشراق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة، وشنان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول^(١).

فإذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مأثور ومعقول أن يكون النبي عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة: لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإلطاها لها فى رخائها وعسرها، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه، فإن جهتنا أن نتخيل فتاة لا تبكي حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقرب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه، فموضوع الغرابة أن تخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسيه، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبرة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين..

ومثل النبي الذى كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم، وأنه كان أباً مكلوم الفؤاد، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم، ولن يسكت عنه إلا عامداً عالماً بما يلجه^(٢) فى النفس من الحزن والشجن، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام: «مالك تبكين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلمًا وأولهم سلماً»..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها، فإنه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على

(١) البتول: المنقطعة عن الزواج.

(٢) يلجه: لعج فلان البدن بالضرب: ألمه وأحرق جده. والحب فؤاده: أحرقه.

فراقها، فلما تحولت عن داره بعد زواجه لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها: إنى أريد أن أحولك إلى^١. فقلت: فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى. قال رسول الله: قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه. فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي فقال: يا رسول الله! إنه بلغنى أنك تحول فاطمة إليك، وهذه منازلى، وهى أسبق بيوت بنى النجار بك، وإنما أنا ومالى الله ولرسوله، والله يا رسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب إلى من الذى تدع. فقال رسول الله: صدقت. بارك الله عليك! فحولها رسول الله إلى بيت حارثة.

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى: «إن بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه خوخة^٢». وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها، فكان رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم، وإن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى إن ابنتي أمسيا عليين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به! فخرج على إلى السوق فاشترى لهم أدما وجاء به إلى فاطمة، فاستصبحت.. فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل - وذكر كلاما وقع بينهما - فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أن يسد الكوة فسدتها».

إلى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده: «إنه صلى الله عليه وسلم كان يأتي باب على وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضاً مني^٣» الباب ويقول: السلام عليكم أهل البيت، ويقول: الصلاة! ثلاثة مرات، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهيركم تطهيراً.. وكان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يثنى بفاطمة، ثم يأتي بيوت نسائه».

وأسندي يحيى عن محمد بن قيس قال: «كان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه إذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين^٤ من ورق^٤ (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدم أبيها وزوجها، فلما قدم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرؤن أيقون أم ينصرفون لطول مكثه عندها، فخرج رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وقد عرف الغضب

(١) خوخة: باب صغير كالنافذة الكبيرة يكون بين بيتين.

(٢) بعضاً مني: العضادة - بالكسر - من الباب جانبها، وهما عضادتان عن يمين الداخل منه وشماله.

(٣) مسكتين: المسكة: السوار والخلخال.

(٤) ورق: الفضة، والدرهم المضروبة.

في وجهه حتى جلس على المنبر، ففقطت فاطمة أنة فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر. فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعست الستر وبعثت به إلى رسول الله ﷺ، وقالت للرسول: قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله. فلما أتاه قال: قد فعلت، فدعاها أبوها، ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شريرة ماء».

وانتظمت الحياة في السكن الجديد الذي أوى إلى ظل النبي على مثال من حياة النبي في بيته: عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وريته، إذ كان رزق على من وظيفة الجندي، ووظيفته من فيء الجهاد، وقد كان قليلاً في حياة النبي، وهو مقصور على الجزيرة العربية، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم، وكلما رزق وليدا جاءته حصته على قدر شأنه كشأن كل أب من المسلمين. وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية، وقد رزق الأبوان الفقيران نصبياً صالحاً من البنين والبنات: الحسن والحسين ومحسن، وزينب وأم كلثوم..

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذي كان يواليهم به جميعاً ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسم في محظوظ الدعوة والجهاد، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخاً محفوظاً في الصدور والأوراق.

فلما ولد الحسن سماه والداه حريا فجاء رسول الله فقال: أروني ابني ما سميتمه؟ قالوا: حرب! قال: بل هو حسن، وهكذا عند مولد الحسين، وعند مولد المحسن، وقد مات وهو صغير.

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان، ولم يلبث أن حفظها المشرقان..

حُزْقَه^(١) .. حُزْقَه .. ترْقَه .. ترْقَه عين بقَه.

وربما شوهد النبي عليه السلام ساجداً وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه، فيتأني في صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحرزه عن مركبته، وفي إحدى هذه السجادات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد: المطية مطيتك!

(١) الحرق: القصير.

بل ربما كان على المنبر، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران، فيسبقه حنانه إليهما وينزل من المنبر ليحملهما، وهو يقول: «صدق الله العظيم! إنما أموالكم وأولادكم فتنة!»..

وكان إذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لها: «ما بكاء هذا الطفل؟.. ألا تعلمين أن بكاءه يؤذيني؟»..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدين. ففي إحدى هذه الليالي سمع الحسن يستسقى فقام صلوات الله عليه إلى قربة فجعل يعصرها في القدر ثم جعل يعبعبه، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن، قالت فاطمة: كأنه أحب إليك؟ قال: إنما استسقى أولاً!

وقد يلفهم جميعاً في برد واحد فيقول لهم: «أنا وأنتم يوم القيمة في مكان واحد». وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعاً من أبوة الأب الصغير، فكانت فاطمة تقول إذا رقصت طفلها:

وابأبى شبيه النبي لست شبيهاً بعلى
وكانوا يتغایرون على هذا تغاير المحبين الذين يتنافسون على حب لا يمنع
بعضهم بعضاً أن يتنافسوا عليه.

* * *

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة: سعيدة بالعطف في قلوب كبار، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوي مثقال ذرة من هباء.

ولم تخل هذه الحياة، وما خلت حياة آدمي قط، من ساعات خلاف وساعات شكاية، فربما شكت فاطمة وربما شكا على ، وربما أخذت فاطمة على قرينهما بعض الشدة وما هي بشدة، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله. إنما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وإباوها أن تهمل حيث كانت، وإنما هو الحنان الذي تعودته من أبيها فلا تستريح إلى ما دونه، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتقدّه فلا يجد نظيره في قلب إنسان..

وكان الأَبُ الأَكْبَرُ يَتَولِي صَلْحَهُمَا فِي كُلِّ خَلَافٍ، وَرِبَّمَا تَرَكَ مَجْلِسَهُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ لِيَدْخُلَ إِلَى الْأَخْوَيْنِ الْمُتَخَاصِمَيْنِ فَيُرِفِعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ جَفَاءٍ. وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ يَتَتَّبِعُونَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ كُلَّ خَالِجَةٍ مِنْ خَوَالِجَ نَفْسِهِ، وَيَبِيِّحُونَ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ ضَمِيرِهِ مَا يَضْنُ بِهِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ وَالْمُتَبَصِّرِ، يَجْرُونَ مَعَهُ عَلَى عَادِتِهِمْ كَلَمَا دَخَلَ الْبَيْتَ مَهْمُومًا وَخَرَجَ مِنْهُ مَنْطَلِقًا إِلَيْهِمْ الْأَسَارِيْنَ، فَيَسْأَلُونَهُ فَيَجِيبُ: «وَلَمْ لَا وَقَدْ أَصْلَحْتَ بَيْنَ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ!»..

وَمَرَّةً مِنْ هَذِهِ الْمَرَّاتِ، بَلَغَ الْعَتَابُ غَايَةً مَا يَبْلُغُهُ مِنْ خَصُومَةٍ بَيْنَ زَوْجِيْنِ، وَنَمَى إِلَى فَاطِمَةَ أَنْ عَلِيًّا يَهُمْ بِالزَّوْجِ مِنْ بَنْتِ هَشَّامَ بْنِ الْمُغَيْرَةِ، فَذَهَبَتْ إِلَى أَبِيهَا بَاكِيَّةً تَقُولُ: «يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تَغْضِبُ لِبَنَاتِكَ؟».

كَلْمَةُ تَعْلُمُ وَقَعَهَا فِي نَفْسِ أَبِيهَا الَّذِي مَا زَعَمْتُ هِيَ قَطْ أَنَّهُ يَرْضِي بِمَا يَغْضِبُهَا، وَقَدْ عَرَفَ أَبُوهَا مَا تَعْنِي؛ لِأَنَّ بَنِي هَشَّامَ بْنِ الْمُغَيْرَةِ اسْتَأْذَنُوهُ فِي تَزْوِيجِ بَنَتِهِمْ مِنْ زَوْجِ فَاطِمَةَ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرُ وَالْغَضَبُ بَادَ عَلَيْهِ، وَقَالَ عَلَى مَلَأِ الْحَاضِرِيْنَ: «أَلَا إِنَّ بَنِي هَشَّامَ بْنِ الْمُغَيْرَةِ اسْتَأْذَنُونِي فِي أَنْ يُنْكِحُوا بَنَتِهِمْ عَلِيًّا، أَلَا وَإِنِّي لَا آذَن.. ثُمَّ لَا آذَن.. ثُمَّ لَا آذَن.. إِنَّمَا فَاطِمَةَ بَضْعَةَ مِنْ يُرِيبِنِي مَا رَابَهَا...».

وَلَا نَعْلَمُ نَحْنُ مِنْ شَرْحٍ هَذِهِ الْخَطْبَةِ غَيْرَ مَا جَاءَ فِي رَوَايَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، وَلَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْفَتَاهَةَ أَسْلَمَتْ وَبَأَيْمَتْ النَّبِيَّ وَحْفَظَتْ عَنْهُ، فَلَعْلَهَا قَدْ خَيْفَ عَلَيْهَا الْفَتَنَةُ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ كَفَاءٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَأَهْلَهَا هُمْ مِنْ هُمْ فِي الْمَكَانَةِ وَالْحَسْبِ لَا يَرْضِيَهُمْ مِنْ هُوَ دُونَ أَبِي طَالِبٍ مِنْ ذُوِّ قَرَبَتِهَا، أَوْ لِعْلَهَا غَضَبَةُ مِنْ غَضَبَاتِ عَلَى أَنْفَقَاتِ فَاطِمَةَ، أَوْ لِعْلَهَا نَازِعَةُ مِنْ نَوَازِعِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ لَمْ يَكُنْ فِي الدِّينِ مَا يَأْبَاهَا، وَإِنَّ أَبَاهَا الْعَرْفُ فِي حَالَةِ الْمَوْدَةِ وَالصَّفَاءِ. وَلَا نَحْسَبُ أَنَّ حَيَاةَ الزَّهْرَاءِ وَالْإِمَامِ تَعْرَضَتْ لِخَلَافَ غَيْرِ الَّذِي أَشْرَنَا إِلَيْهِ، فَإِنَّ كَتَبَ السِّيَرَةَ تَسْتَقْصِي كُلَّ جَلِيلٍ وَدَقِيقٍ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ ذَرِيَّةِ النَّبِيِّ.. وَهِيَ وَأَبْنَاوْهَا كُلَّ ذَرِيَّةِ النَّبِيِّ الَّذِينَ عَاشُوا بَعْدَهُ، وَلَمْ يَطْلُبْ بِهَا الْعُمُرُ فَلَحَقَتْ بِالنَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَعْدَ وَفَاتَهُ بِبَضْعَةِ أَشْهُرٍ، وَكَانَ عَلَى قَدْ عَاهَدَ نَفْسَهُ لَا يَغْضِبُنَّهَا وَقَدْ غَابَتْ عَنْهَا عَيْنُ أَبِيهَا، فَلَمْ يَغْضِبُهَا بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى فِي أَمْرِ الْخَلَافَةِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَجْلُ الْأَمْرِ.

بِلَاغَتُهَا



قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب بلاغات النساء: «.. لما أجمع أبو بكر رضي الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله ص - فدك، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله ص شيئاً حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنت أنت أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلوة على رسول الله ص فعاد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم، فإن تعزوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخي ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صاعداً بالرسالة، مائلاً على مدرجة المشركين، ضارباً لتجنهم^(١) أخذنا بكمظهم، يهشم الأصنام وينكت الهايم، حتى هُزم الجمع وولوا الدبر وتفرّى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين وخرست شفائق الشياطين، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبضة العجلان وموطن الأقدام تشربون الطريق^(٢) وتقاتلون القد، أذلة خاسعين تخافون أن يخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله برسوله ص بعد اللثي والثى وبعد ما منى بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا ناراً للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفُغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها فلا ينكمي حتى يطأ صماخها بخمه ويُخمد لهيبها بسيفه مكدوبياً في ذات الله قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، وأنتم في بُلْهَنِيَّةٍ وادعون آمنون، حتى

(١) التجن: (بسكون الجيم وتحريكها) الطريق الوعر (يمانية).

(٢) الطريق: الماء المطروق.

إذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه، ظهرت خلة النفاق وسمى جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق^(١) المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، صارخاً بكم، فوجدكم لدعائكم مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمسكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتموها غير شريك، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل...».

إلى أن قالت: « وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة أبْتَزْ إرث أبي؟ أفى الكتاب أن ترثي أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً، فدونكما مخطوطة مرحولة تلقاءك يوم حشرك، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكل نباً مستقر وسوف تعلمون».

ثم انحرفت إلى قبر النبي ﷺ وهي تقول:

«قد كان بعده أباء وهنّة

لو كنت شاهدهم لم تكثُر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب»

هذه رواية لخطاب الزهراء، وفي الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة في لفظها ومعناها للرواية السابقة، وقبل إيراد الروايتين قال أبو الفضل : ذكرت لأبي الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له إن هؤلاء - يشير إلى قوم في زمانه يغضون من قدر آل البيت - يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبي عن جدي يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية، ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبي العيناء، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه. ثم قال

(١) الفنيق: الجمل القوي.

أبو الحسن: وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يررون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت؟

ونسبت إلى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه، وأنها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت: «يا أنس!.. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا^(١) على رسول الله التراب؟» ثم بكت ورثته قائلة:

أَغْبَرُ آفَاقَ السَّمَاءِ وَكُورَتْ^(٢)

شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمُ الْعَصْرَانِ
فَالْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَثِيرَةٌ
أَسْفًا عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرِّجْفَانِ
فَلِيَبْكِهِ شَرْقُ الْبَلَادِ وَغَرِيبُهَا
وَلِيَبْكِهِ مَضَرُّ وَكُلُّ يَمَانِ
وَلِيَبْكِهِ الطَّوْدُ الْمُعْظَمُ جَوْدُهِ
وَالْبَيْتُ ذُو الْأَسْتَارِ وَالْأَرْكَانِ
يَا خَاتَمَ الرَّسُولِ الْمُبَارَكُ ضَوْءُهِ
صَلَى عَلَيْكَ مِنْزُلُ الْقُرْآنِ

ووقفت على قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول:

مَاذَا عَلَى مِنْ شَمْ تَرْبَةُ أَحْمَدَ
أَنْ لَا يَشْمِ مَدِيَ الزَّمَانِ غَوَالِيَا^(٣)
صَبَّتْ عَلَى مَصَابِبِ لَوْأَنَّهَا
صَبَّتْ عَلَى الْأَيَامِ صَرَنْ لِيَالِيَا

(١) تحثوا: حثا التراب عليه وفي وجهه قبضه ورماه به.

(٢) كور: كور فلانا طعنه فألقاه مجتمعاً المتعاج جمعه وألقاه بعده فوق بعض وشده.

(٣) غواليا: الغوالى جمع غالية، وهى طيب مركب من أخلاق تغلى على النار.

وقالت على قبره أيضًا:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذ غبت عننا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت وحالت دونك الكتب^(١)

ومضى أنها تمثلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع
تكرار شطر منها وهما:

قد كان بعده أنباء وهنبئة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
أنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارئ إقواء، لأن الباء مضمومة في روى البيت الأول
مكسورة في روى البيت الثاني، ولعل شطراً منها حل محل شطر في نقل الرواية..

* * *

نقول: إن الخلاف في أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير، ولا تحب أن نخوض فيه؛
لأنه خلاف على غير طائل، وقد يحسمه أن نذكر في هذا الباب ما يقل فيه الخلاف
بين جميع النقاد، فإنه أجدى من اللهو في جدال لا سند له، يسلمه جميع المخالفين.
فيقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن ذلك الخطاب ليس مما يبدد من اللسان عفو
الخاطر، وإن قائله يعده في نفسه قبل إلقائه كما كان يصنع الخطباء قبل
استخدام الكتابة في التحضير.

ويقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند
سماعه، فإن حفظه فإنما يحفظه منقولاً أو مكتوباً بعد حفظه.

فإذا قل الخلاف في هذا فعلام إذن يكثر الخلاف؟

(١) الكتب: جمع كتيب، وهو التل من الرمل.

أتراء يكثر حين يقال إن السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تتحفل لها وتعدها في خلدها؟

إن هذا النصيб من البلاغة إذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد في عصرها لا يستكثر عليه.

لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء، وانتقلت إلى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من إمام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه، وسمعت القرآن يرتل في الصلوات وفي سائر الأوقات، وتحدث الناس في زمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق في أمرها عن الهوى.

جاء في الجزء الثالث من العقد الفريد عن «الرياشي» عن عثمان بن عمرو عن إسرائيل بن ميسرة بن حبيب، عن المنھال بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حدثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحب به وأخذت بيده وقبلتها، فدخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه، فأسرر إليها فبكت، ثم أسرر إليها فضحتك، فقلت: كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء فإذا هي واحدة منهن، بينما هي تبكي إذا هي تضحك. فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها فقالت: أسر إلى فأخبرني أنه ميت فبكت، ثم أسر إلى إنني أول أهل بيته لحوقاً به فضحتك».

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعاً، ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة أن امرأة في فضلاها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلاً على سائر النساء في حلمها ورصانتها. ففيه يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيб من البلاغة إذا نسب إليها؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته في حديثه؟ ولماذا تستعظم على زوجة الإمام الذي كان المتفقون على

بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته، وهي مضرب الأمثال؟ ولماذا تستعظام على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح؟

أما نسبة الشعر إلى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها في الشاعرات إن ثبت، ولا يضيرها إن لم يثبت، ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه أقرب مما إلى جانب القبول، وليس بعيداً على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير في فمه أبياتاً يحكى بها حزنه وبيته، فإن النظم هنا أقرب إلى لغة العاطفة وعادية النحيب، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن في مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها في مقام العبرة والرثاء.

* * *

٥ في الحياة العامة



مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذي عهدها عاكفة على بيتها، تزدهر عكوفاً عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التي تنفرد بها ولا تجد معييناً عليها في كثير من الأيام غير زوجها.

ثم توفي النبي صلوات الله عليه، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها في معرك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميهما في أيامنا، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعرك في تلك الآونة؛ لأن الخلاف فيها كان خلافاً على ميراث أبيها، ميراث الخلافة، وميراث التركة القليلة التي أعقبها.

ومسألة الخلافة في يوم وفاة النبي إحدى المسائل التي طال فيها الجدل ولا يُعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه، وذاك أن الخطر الأكبر في ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة: سقيفة بني ساعدة، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة، تطلب الإمارة، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبي بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين: أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه في قومه نافراً من البيعة لأبي بكر بعد انعقادها وهو يأبى إلا أن «يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فإنه لهم دون الناس».. ثم أصر على إبائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم: «أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل وأخضب سنان رمحى» وناسدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول: «إنى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى، مقاتلكم بولدى وأهل بيتي ومن أطاعنى من قومى.. وایم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتم حتى أعرض على ربى».

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاضره ولا في مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابرها^(١)، وهو خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يحضاً^(٢) نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش، يَعِدُ قوماً بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائهم، ويُوسمُ لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد، وما كان من همه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار، وإنما أراد الواقعة التي يخذلهم بها جميعاً ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية.

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر، ولم يطلبها، بل كان مشتغلاً بدفع الرسول. وُدعى إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته، حتى هم عمر بمعايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع في السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين، وقبل أن تنجح المسعاة من أبي سفيان في خفائها، وقد كاد أن يعلنها.

وكان على في تلك الساعة العصيبة إلى جوار الجثمان الظاهر المسجى في حجرته، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً: «يا أبا الحسن! هذا محمد قد مرض إلى ربه، وهذا تراثه لم يخرج عنكم، فابسط يدك أبايعك!».

ويقول عمه العباس: «يا بن أخي.. هذا شيخ قريش قد أقبل، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى. فإنما إن ببايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف، وإذا ببايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشى، وإذا ببايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب»..

فيجيبه على: «لا والله يا عم!.. إنى لأكره أن أبايع من وراء رتاج»..

ولقد كان أحکم في جوابه هذا من شيخ الدهاء من بنى هاشم وشيخ الدهاء من بنى أمية، فما للخلافة معدى عنه إن كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين، وما للبيعة هناك جدوى إن تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين.

(١) يقطع دابرها: الدابر آخر كل شيء، يقال: قطع الله دابرهم: أى آخر ما تبقى منهم.

(٢) يحضاً: حضاً النار، أرثها وأشعلها.

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ، فإن يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاهما من السقيفة ومسعاها من دار أبي سفيان، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة دينهم، وما كان فى وسع أحد أن يبلغ أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الإسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم، ولا أن يفتح للإسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحاً أعظم وأقرب مما فتحوه.

وآمن علىٰ بحقه فى الخلافة، ولكنه أراده حقاً يطلبه الناس ولا يسبقهم إلى طلبه، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعيشه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر كأنه فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة.

وقد اختلف الصديق والفاروق والإمام يوماً أو أياماً بعد وفاة النبي عليه السلام، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعاً أنهم لم يكروا لأنفسهم ولا لذويهم، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم، ولم يحْن أحد منهم حياةً تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق علىٰ فى الخلافة، أو ترى أن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته، وأن بلاء علىٰ فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلهانه لمقام الخلافة. وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر علىٰ غير هذا المجرى، فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم، أى يأبون أم يتخلقون، ولم نطلع علىٰ روایة واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى فى تأليب الناس علىٰ نقض البيعة. وبعد مساجلات بينهم وبين أبى بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدتها وتكسّفت الدسيرة التى بيّتها أبى سفيان، فقد عاد أبى سفيان يعرض مبaitته علىٰ علىٰ ويتحفظ للوقيعة. فصده علىٰ وعرض له بذكر الغشّة والمخادعين، ثم قال له: «إنك ت يريد أمراً لسنا من أصحابه»، فلما ينس من هذا الباب طرق باباً آخر لعله يلتج منه إلىٰ مأربه، وذهب إلىٰ العباس يقول له: «امدد يدك يا أبا الفضل أبَا ياعك

فلا يختلف عليك القوم». ثم يقول: «إنك والله لأحق بميراث ابن أخيك» فيرده العباس كما ردّه على، ويکاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوى بانطواء الكلام في مسألة الخلافة، لولا مسألة «فdk» أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم، مخافة السخط من بنت رسول الله..

وخلاصة الحديث في أمر «فdk» أنها قرية كان النبي يقسم فيها بين آل بيته وفقراء المسلمين، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة إلى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر!.. فقال أبو بكر: «إن رسول الله ﷺ كان يقول: إننا معشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة.. وإن الله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها» ويقال إن الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه - زكرياء - «يرثنى ويرث من آل يعقوب» وقوله تعالى: «وورث سليمان داود» .. وإن أبو بكر قال لها: «يا بنت رسول الله! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يد لي بجوابك ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسن بيمنى وبينك هو الذي أخبرنى بما تفقد، وأنبأنى بما أخذت وتركت».

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة «إن أبو بكر قال: يا ابنة رسول الله! والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً وإنه قال: إن الأنبياء لا يورثون. فقالت: إن فدك وهبها إلى رسول الله ﷺ، قال: فمن يشهد بذلك؟ فجاء على بن أبي طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضاً، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدوا أن رسول الله ﷺ كان يقسمها. فقال أبو بكر: صدقت يا بنت رسول الله، وصدق على، وصدقت أم أيمن، وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أن مالك لأبيك، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله، فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما يصنع بها أبي! قال: فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك، قالت: الله لتفعلن؟ قال: الله لا فعلن. قالت: اللهم اشهد.. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي، وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان على كذلك».

وفي خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإننا قد أغضبناها». فانطلقوا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهم، فأتياً عليها فكلماه، فأدخلهم. فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلموا عليها فلم ترد عليهم السلام، فتكلم أبو بكر فقال: «يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقي بعده، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حبك وميراثك من رسول الله؟ ألا إنى سمعت أباك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا نورث . ما تركناه فهو صدقة». فقالت: «رأيتكما إن حدثتكمَا حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتعملان به؟» قال: «نعم». فقالت: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى؟» قال: «نعم سمعناه من رسول الله». قالت: «إإنى أشهد الله وملائكته أنكمَا أسلخطتمانى وما أرضيتمانى، ولئن لقيت النبي لأشكونكمَا إليه». فقال أبو بكر: «أنا عائز بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة»، ثم انتصب يبكي حتى كادت نفسه تزهق.. ثم خرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم: «ببيت كل رجل منكم معانقا خليلته مسروراً بأهله وتركتمونى وما أنا فيه؟ لا حاجة لي في بيعتكم. أقيلونى بيعتى».

والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى إلى مقطع للقول متفق عليه. غير أن الصدق فيه لا مرأء أن الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق، وإن الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة عليه، ومن أسف ما قيل إنه إنما منعها فدك مخافة أن ينفق على من غلتها على الدعوة إليه، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحداً بايدهم لمال أخذه منهم، ولم يرد ذكر شيء من هذا فى إشاعة ولا فى خبر يقين، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فدك، فقد كان يكسب برضاى فاطمة ويرضاى الصحابة برضاها، وما أخذ من فدك شيئاً لنفسه فيما ادعاه عليه مدع، وإنما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين، رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

ولعلنا نجمل ما وقر في أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها، بعيداً من الخصومة، بعيداً من زمانها، بعيداً من الشبهة فيها؛ لأنه قال كلمته وفديك في يديه ينزل عنها باختياره، لا يدعوه إلى ذلك داع غير وحى ضميره.

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل في مستهل عهده بالخلافة: «إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف^(١) المسلمين عليه بخييل ولا ركاب، فسألته فاطمة إياها فقال: ما كان لك أن تسألينى وما كان لي أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحث وضعه رسول الله، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك، فصارت لي وللوليد وسلامان، فلما ولى الوليد سأله حصته منها فوهبها لي، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لي، فاستجمعتها، وما كان لي من مال أحب إلى منها، فأشهدوا أننى قد ردتها إلى ما كانت عليه».

في هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألفها من العكوف على شئون بناتها والابتعاد من الحياة العامة، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة^(٢) قرياتها، وهما مسألة الخلافة بعد النبي ومسألة الميراث من فينه، وإدحاهما مما نسميه في لغة عصرنا بالسياسة العليا، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية، ولكل منها جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسة من نحوها. أما في الدراسات النفسية فالملهم فيهما وفي غيرهما هو ما ترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة، وما ترجمان عنه حين نوجزه هو قوة إيمان بحقها تثبت عليه و«شخصية» مستقلة لا يهمل لها حساب.

* * *

(١) يوجف: أوجف الفارس فرسه حتى يجد في السير.

(٢) وشيبة: الوشيبة: عرق الشجرة وما التف من الأشجار ونحوها. يقال: بينهم وشائب النسب.



وَفَاتُهَا

قلنا في «عصرية محمد»:

«حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحارت في تعليها عقول الأساطير من أهل العلم والحكمة، وهو لا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه».

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالإتقان في مزية أخرى..

* * *

فالأحياء السفلي عرضة للعطب الكبير في طور الولادة والحضانة، فيقابل هذا أن الأحياء السفلي ترسل ذرياتها بالألاف وألوف الألوف، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير.

«والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناء بها، وتتجدد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلي».

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه، فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يوجد ذلك على نسله وينقص من قسمة في أبنائه، كأنما خدمة النوع ضربية مفروضة على كل فرد في صورة من الصور، فإذا أداها في صورة أعمى منها في الصور الأخرى أو كأنما هي موهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد إلا بثمن غال يحسب عليه، ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الأحياء.

والإنسان أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر في تجديد النسل وزيادة عدده.

فهل يجوز لنا أن نقول إن العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم بإصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريقة الذرية؟

إن قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التي أشرنا إليها، ولا يبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضي بنا إلى الجزم أو إلى التغلب..

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا، وفيهم أنبياء معظمون لا شك في سيرتهم من هذه الناحية، كعيسى عليه السلام.

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا ذرية، أو رزقوا ذرية كلها إناث، أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة..

وتاريخ العظماء في جميع نواحي العظمة، وفي جميع الأمم، وفي جميع العصور، حافلة بالشاهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون، ويدخل فيهم القادة العسكريون.. ولا يصعب على أحد أن يدبر بصره إلى فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه، وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول وعبدالله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمي ومحمود سامي البارودي وحافظ إبراهيم.

فإذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها، وجاز لنا أن نفهم أن إصلاح شئون النوع الإنساني ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية في بعض الأحوال، فain ترانا نجد تلك الضريبة في أرفع حالة وأعلى قيمة إن لم نجدها في رسالة

نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين في كل جيل؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبي الذى يتکفل بتربيـة الأرواح في أمته، وفي أم لا يلقاها في زمانه، وأم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان؟
نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية، ونرى تكافؤا في الجانبين جديرا باللاحظة والاعتبار».

* * *

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء في زهرة الشباب، في الثلاثين أو ما دون الثلاثين..

مات الذكور من ذرية محمد صغاراً لم يجاوزوا سن الرضاع، وعاش الإناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر، ومنهن من لم ترزق قوة البنية في عنفوان الشباب..

وكانت الزهراء نحيلة سمراء، يمازج لونها شحوب في كثير من الأوقات، وقد رأها النبي عليه السلام في مرض وفاته فقال لها إنها أسرع أهله لحوقا به، فلم تمض ستة أشهر، وقيل أقل من ذلك، حتى لحقت به في تلك السن التي تستقبل فيها الحياة.

وكانت تشكو حينا بعد حين، ويعودها النبي يواسيها في مرضها فإذا هو يواسيها كذلك في حاجتها، زارها يوماً وهي مريضة فقال لها:

«كيف تجدينك يا بنية؟» فقالت: «إنى لوجعة». ثم قالت: «وانه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله.. فاستعبر عليه السلام وقال: «يا بنية!.. أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين!»..

زارها يوما وهي تطحن بالرحي وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعى يافاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال^(١)، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته، ولكنها كانت فاققة تعمهم جميعا حين لا يجد النبي ما يفرقه بينهم، وقد شكت زوجاته

(١) الأنفال: النقل بفتحتين: الغنيمة والهبة.

تلك الفاقة فخيرهن بين التسریح لینعم بالحياة الدنيا وزینتها، أو يردن الله
ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه!
الله أكبر!..

* * *

مثل محمد يعلو على إشراق المشقين، ومن كان في قدرته أن ينعم من الدنيا
بما يقطع قلوب الحاسدين حسدًا، ثم يرضي لنفسه وأله منزلة الإشراق، فذلك هو
الإعظام غاية الإعظام، وذلك هو المرتقى الذي قيل فيه:
ويعيذ بالوغ هاتيك جذا

تلك عليا مراتب الأنبياء

أن محمدًا يبكي؛ لأنه يرى أحب الناس وأقربهم منه جائعة مرهقة، ثم لا يملك
لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها، وهو يملك كل شيء في الجزيرة العربية..
ويسأل السائلون من زعافقة المعطلين والمتغصبين أعداء كل دين «وما برهان
النبوة عند محمد؟!».

الله أكبر.. إن لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شيء يكون؟

* * *

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يُعرف من وصفه، فإن العرب لوصافون وإن
من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسم، فما
وقفنا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شکواها على شيء يشبه أعراض
الأمراض التي تذهب الناس في مقبل الشباب، وكل ما يتبع من كلامهم أنه
الجهد والضعف والحزن، وربما اجتمع إليها إعياء الولادة في غير موعدها، إن
صح إنها أسقطت «محسناً» بعد وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار.
ونعود فنقول إنها ضريبة النبوة، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة
مرات بعد مرات!

* * *

وحضروا الموت.. وخذلتها جوارحها، وعزيمتها في مواجهة الموت حاضرة لا
تخذلها، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها، وقالت لصاحبتها أسماء

بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل «يا أمّه! أئتيتني بثيابي الجدد»، فلبستها ثم قالت: «قد اغتسلت، فلا يكشفن لي أحد كنفا»^(١)، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها: «أ تستطعيين أن تواريني بشيء؟» قالت: «إنّي رأيت الحبّشة يعملون السرير للمرأة ويشدّون النعش بقوائم السرير» فعمل لها نعشها قبل وفاتها، ونظرت إليه فقالت: «سترتموني ستركم الله».. وتبسمت، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها..

* * *

وكانت وفاتها، على القول الأشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة، ودفنت ليلاً حسب وصايتها كما دفن رسول الله ﷺ.
في كل دين صورة لأنوثة الكاملة المقدسة يتخلّع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى..
فإذا تقدست في المسيحية صورة مريم العذراء، ففي الإسلام لا جرم تقدس صورة فاطمة البتول.

* * *

(١) كنف: الكتف بفتحتين: الجانب والناحية. وهو يعيش في كنف الأمير: أى في ظله. وكنف الله: حرزه وستره.



شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ؛ لأنها بنت نبى، وزوجة إمام، وأم شهداء..

ولكن لا يتضح هذا الوضوح، ولا يبين هذا البيان، أنها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصى» أو بصفتها التي كان لها أثر فى حوادث التاريخ.

وهذا الذى نحب أن نقرره فى الكتابة عن الزهراء، فهى أصل قوى من أصل الدعوة التى ثبتت فى مجرى الزمن أجياً طوالاً ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هذا، وفيما يلى من العصور.

لم يعرف التاريخ نظيرًا للثبات بنى على وفاطمة على حقهم فى الإمامة، أو فى الخلافة..

حوربوا فيها زمانا، وتولواها من لا شك عندهم ولا عند الناس فى فضلهم عليه، كيزيد بن معاوية، فأنفوا أن يتركوها استخداً وخصوصاً، وحاربوا فيها كما حوربوا، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة، ثم مائتين، ثم ثلاثة مائة سنة، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم فى عهد الدولة الفاطمية.

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوه على هذا الثبات، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنف من بني أمية ثم من بني العباس، ومعهم فى المشرق والمغرب أعون وأتباع، وقد جدوا غاية الجد فى نكالهم بأبناء على وفاطمة فى كل مكان، وصنعوا بهم ما كان خليقاً أن يستأصلهم استئصالاً أو يرغموا على اليأس والتسليم.

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرین، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف، ويقعدوا مع الخالفين..
ولولا خصال فيهم لما كان هذا منهم.

فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة، ولا بد لها من نصيب من الوراثة، فقد ورثها عن فاطمة كما ورثوها عن على، بل هي إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام.

بعض الأخبار يفيد إن صح، وإن لم يصح، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا إن علياً جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاتها.

إن صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر أن القضية قضية الزهاء وأن الإمام يجاملها فلا يغضبها، وأنه كان يرى أن الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه، فإن لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبر لطلبها والسعى إليها..

* * *

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقى إليه بالا، وهو في هذا الباب أدل من كثير، كالخبر الذي روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير..

رووا أن الصديق رضي الله عنه قام على المنبر يخطب الناس، فما هو إلا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتاً نحيلًا يهتف: «ليس هذا منبر أبيك، انزل عن منبر أبي...».

والتفتوا فإذا بالصائح هو الحسن بن على، ولما يبلغ الثامنة، فابتسم الصديق وقال والحنون يشيع في نفسه: «ابن بنت رسول الله؟ صدقت والله .. ما كان لأبي منبر، فإنه لمنبر أبيك»..

وسمع على بالخبر فأرسل إلى أبي بكر رسولاً يقول له: «اغفر ما كان من الغلام، فإنه حدث، ولم نأمره».

قال أبو بكر: «إنى أعلم. وما اتهمت أبا الحسن».

وليس الزهاء ولا ريب هي التي أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال.. ولكن الطفل يفهم عن أمه في هذه السن ما يغنه عن الأمر والإيحاء، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشاً يتكرر بين أبيه في هذا الأمر، فوقد في نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة، ثم نهى عنها فلم يعاودها..

* * *

في خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه،
أو يزداد عنه فلا ينكس عن رغبته.

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، وكانت مفطورة على يقين التدين،
وكانت ذات إرادة لا تهمل في حساب شأن من شتونها، فظهر منها في المواقف
القليلة التي نقلت عنها أنها كانت ذات إرادة لا تنسى في الحساب..

كان من اعتزازها بالانتساب إلى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها،
وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم، فلم يكن أحب إليها من أن يقال لها إن
أسباط رسول الله يشبهون رسول الله.

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين: كان حسبها ما ورثته من خاتم
الأنبياء وما تعلمته منه بالتربيبة والمجاورة، ولكنها أضافت إليه ما ورثته من
أمها: أمها بنت خوبلد الذي تصدى لعاهر اليمين غيره منه على الكعبة، وابنة عم
ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته، غير مدعو
ولا مأمور.

* * *

ومن فطرة التدين في وريثة محمد وخديجة أنها شديدة التبرج^(١) فيما اعتقدت
من أوامر الدين، حتى وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء، يظهر ذلك
من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت: «دخل رسول الله ﷺ فأكل
عرقاً^(٢) فجاء بلال بالأذان، فقام ليصلّى، فأخذت بثوبه فقلت: يا أمّة! ألا تتوضأ؟
فقال: مم أتوضأ يا بنية؟ فقلت: مما مسست النار. فقال لي: أو ليس أطيب طعامكم
ما مسست النار؟»..

فهي فيما تجهله تبرج ولا تترخص^(٣) وتوثر الشدة مع نفسها على الهوادة
معها..

(١) التبرج: تبرج: فعل فعلاً يتبرج به من البرج: أى الإثم.

(٢) عرقاً: العرق بفتح العين وتسكين الراء: العظم أخذ معظم لحمه، يكسر ويطبخ ويؤكل ما عليه من اللحم
الرقيق.

(٣) تترخص: الترخص في الأمر التسهيل والتيسير خلاف التشديد.

وقد ذكر غير واحد من الصحابة، وذكرت السيدة عائشة، أنها كانت أشبه الناس بمحمد في مشيتها وحديثها وكلامها، وزادت عائشة فقالت: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكي ثم تضحك إلى جوار رسول الله ﷺ في مرض وفاته، ثم علمت أنها ضحكت: لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب.

أما إنها كانت رضي الله عنها ذات إرادة لا تهمل، فقد بدا ذلك في أمر زواجه، وفي محاجتها لزوجها، ومحاجتها لأبى بكر وعمر، وفيما كان يتواهه على من مرضاتها بقصد المبایعة قبل وفاتها.

وقد يكون من دلائل الإرادة في المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأله، وإنها لا تعجل إلى الحديث فيما تعلم فضلاً عما لا تعلم، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد، ولم تزد عليه.

ولا ننسى أن الزهراء قد غوضرت^(١) وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين، فإذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة وهي في تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوتها كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيتها وما عساهم قد استمدواه من هذا الميراث المكين.

* * *

(١) غوضرت: توفيت مبكرة.



الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة، يعنيها النسب؛ لأنها تعتمد عليه في مفاهيرها كما تعتمد عليه في مصادرها، فهو الذي يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثار ويحاسبونه على جريمة^(١)، ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه، فالخليل عندهم من لا خلاق^(٢) له، فلا هو يبالي بشيء ولا يبالي به أحد، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته.

إن الخليل عندهم هو القططع عن نسبة.

ولهذا حفظوا أنسابهم في الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة.

وبعد الإسلام وجب حفظ الأنساب ولجأوا إليه في تدوين الدواوين كما لجأوا إليه في ميادين القتال، فكلما حمى وطيس^(٣) القتال نودى في القوم: انتسبوا. ليستحى المرتد من الهزيمة التي يلحق عارها به وبذرته ما بقيت لهم سيرة في ذاكرة..

* * *

واعظمت العناية خاصة بذرية النبي عليه السلام، صوناً للنسب الشريف، ودفعاً للأدعية من طلاب الخلافة، فلم يقع لبسٌ قط في نسب أبناء فاطمة مدي الصدر الأول من الإسلام.. ولم ينهض منهم قط إمام مشكوك في نسبه على عهد الدولة الأموية، ولم يكن الشك في النسب مطعناً في دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية، ولم يزل أمرهم كذلك إلى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية. أما قبل ذلك فقد كان دعاء الدولة العباسية يناقشونهم الحجة في حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم إلى السيدة فاطمة، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب إليها رضي الله عنها.

(١) جريمة: الذنب والجناية.

(٢) لا خلاق له: لا نصيب له من الخير.

(٣) وطيس: المعركة. التنور من حديد، وحمى الوطيس اشتدت الحرب.

من ذاك ما روى عن المأمون أنه قال يوحاً لعلى بن موسى الرضا: «بم تدعون هذا الأمر؟ قال: بقراة على من رسول الله ﷺ وبقراة فاطمة رضي الله عنها، فقال له المأمون: إن لم يكن هاهنا إلا القرابة فقد خلف رسول الله ﷺ من كان أقرب إليه من على أو من في مثل قدره، وإن كان بقراة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعلى في هذا الأمر حق وهم حيّان، فإن كان الأمر كذلك فإن علياً قد ابتهلما حقهما وهم صحيحان واستولى على ما لا يجب له».

قال رواة هذا الحديث: «فما أجابه على بن موسى بشيء».

وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبي العلاء:

تلوا باطلاً وجلو صارماً

وقالوا: صدقنا؟ فقلنا: نعم!

* * *

وإلا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة - وقد رزقا اللسان والفصاحة - أن يعجز في هذا المقام عن الكلام الذي يقال في الرد على كلام المأمون، وأقربه على اللسان أن علياً إن كان قد استولى على حقه فهم ورثته، وإن كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلاماً كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلوبيين والفاتميين، وأيسره أن أحدهما من جدود بنى العباس في حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلبها.

إلا أن دعوة الدولة العباسية إنما كانوا يدفعون دعوى العلوبيين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة الولاء للمنتسبين إلى الزهراء، إلا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان.

قال العتبى: كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة، فكان الربيع يحمل عليه المهدى فلا يلتفت إليه، حتى رأى المهدى فى منامه شريك القاضى مصروفاً وجهه عنه، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع وقص عليه رؤياه فقال يا أمير المؤمنين؟ إن شريكـ مخالف لكـ وإنـ فاطمىـ محضرـ قالـ المهدىـ علىـ بهـ فلما دخل عليه قال له: يا شريكـ بلغنىـ أنـكـ فاطمىـ قالـ شريكـ: أعيـذـ بـالـلـهـ ياـ أمـيرـ المؤـمنـينـ أنـ تكونـ غيرـ فاطـمىـ إلاـ أنـ تعـنىـ فـاطـمـةـ بـنـتـ كـسـرـىـ!ـ قالـ:ـ وـلـكـنـىـ أـعـنـىـ فـاطـمـةـ بـنـتـ محمدـ ﷺـ!ـ قالـ شـريكـ:ـ أـفـتـلـعـنـهـاـ يـاـ أمـيرـ المؤـمنـينـ؟ـ قـالـ المـهـدـىـ:ـ مـعـاذـ اللـهـ!ـ قـالـ:ـ فـمـاـذـاـ تـقـولـ فـيـمـ يـلـعـنـهـاـ؟ـ قـالـ:ـ عـلـيـهـ لـعـنـةـ اللـهـ!ـ قـالـ فـالـعـنـ هـذـاـ!ـ وـأـشـارـ إـلـىـ الرـبـيـعـ!ـ فـإـنـهـ

يلعنها، قال الربيع: والله يا أمير المؤمنين ما أعنها. فقال شريك: يا ماجن! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجلس الرجال؟ قال المهدى: دعنى من هذا. فإنى رأيتك في منامي كأنك مصروف عنى وقفاك إلى وما ذلك إلا بخلافك على، ورأيت في منامي كأنى أقتل زنديقا. قال شريك: إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام، وإن علامه الزندقة بيبرة. قال: وما هي؟ قال: شرب الخمر والرشي في الحكم ومهر البغى قال: صدقت والله يا أبا عبد الله. أنت والله خير من الذي حملنى عليك».

* * *

وحدث مثل هذا في معارض كثيرة، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم، واضطروا إلى التعلل لهم بغير تلك العلة.. ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة، فانتقلوا من المناقشة بالحجج في حق العم وابن العم، والموازنة بين حق العباس عم النبي وحق على ابن عمه، إلى إنكار النسب بنته، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين في الأرجاء واستثارهم بالدعوة ووقوع اللبس في الكنى والألقاب، فطعنوا في انتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذي سيأتي ذكره في القسم الثاني من الكتاب، واشترك في هذه المنايذات^(١) أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم. مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم، لم يسلم من فتنه هذه الغواية، فقال وهو يتكلم عن ذرية إسماعيل بن جعفر الذي ينتسب إليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالإسماعيلية: «وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغى هذا، وشهد له بذلك رجل من بنى البغى وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبي الحر على بن محمد الشاعر بن على بن إسماعيل ابن جعفر، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر، وكل هذه دعوى مفتعلة؛ لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين، وهذا كذب فاحش، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله إلا جاهم».

* * *

(١) المنايذات: المنايذة: مكاشفة العدو وإعلامه بالعزم على القتال.

ونحن نخص ابن حزم بالذكر في هذا المعرض: لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك في مؤلف واحد ونسابة واحد.. فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف، ولكنه في هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعي احتمالها وقبولها.

كان ابن حزم أموايا غاليا في التشيع للأموية، وكانت دولتهم في الأندلس على خطر من الدعوة الإسماعيلية، ويبلغ من كراحته للإسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى إلى المذهب الظاهري: أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل؛ لأن مذهب الإسماعيليين يقول بالتأويل وبيانه من حق الإمام.. بل قد بلغ من كراحته القوم أنه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه، فيلقبه بالبغىض بدلًا من الحبيب، ولعله لم يضع كتابه في جمهرة أنساب العرب إلا ليثبت حق بنى أمية في الخلافة؛ لأنهم من قريش، فصعد بحق الخلافة إلى جد الأمويين والهاشميين وقال في مقدمة كتابه: «ومن الغرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز إلا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له، وهذا لا يجوز أصلًا...». وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين إلى المناقشة في معنى الحديث القائل أن فاطمة سيدة النساء وإنه لا يعني أنها أفضل نساء العالمين!

* * *

ونحن ننزع ابن حزم عن تعمد الافتراء، ولكننا نقول إن هواه قد جنح به إلى قبول ما ليس بحجة في إثبات نسب أو دفع نسب، ولو لا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفي والإثبات.

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفاصيل، ونسلف القول في تلخيصه فنقول: إننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذي يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفي ذلك النسب، ووقفنا على شبكات كثيرة توجب الشك في مطاعن الطاعنين، وهذه الشبهات في روايات نسبية كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه.

* * *

القسم الثاني

الفاطميون ...

- الفاطميون ...
- النسب ...
- الباطنية ...
- الباطنية الفاطمية ...
- حسن بن الصباح ...
- السرية الباطنية ...
- بناء وهدامون .. ومهدومون ..
- المعز لدين الله ...
- حضارة متحضرة ...

الفاطميون

٩

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون، ولكن اسم الفاطميين يطلق في تاريخ الدول على أبناء إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق، ويسمون من أجل هذا بالإسماعيليين.

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحياناً باسم آل البيت، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غالب عليه اسم العلوبيين.

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتفاء إلى الزهراء؛ لأنهم يقيّمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي ﷺ، وأنهم أبناء الوصي على بن أبي طالب، ولكن العباسيين ينazuونهم دعوى الوصاية وينكرونها، ويقولون إن الانساب إلى النبي من جانب عمّه العباس أقرب من جانب على ابن عمّه أبي طالب، ومن أجل هذا يسمى الفاطميون بهذا الاسم؛ لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعه العباسيون.

أما تغلّب اسم الإسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقولهم إنه هو الإمام بعد أبيه، وبهذا الاسم يتميّزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين، وهم ذرية موسى الكاظم، وهو الأحق بالإمامنة في مذهب الإماميين الإثنى عشرين.

وقد كان الإمام جعفر الصادق وصي بالإمامنة بعده لابنه الأكبر إسماعيل، ثم نحاه عنها ووّصى بها لابنه موسى الكاظم، وقيل في أسباب ذلك إنه علم أن إسماعيل يشرب الخمر، وقيل إن إسماعيل مات في حياة أبيه فانتقلت ولاته العهد إلى أخيه.

أما الإسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز؛ لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الإمام المعصوم، والبداء لا يجوز على الله ويعنون بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك.

ومن الإسماعيليين من ينفي موت إسماعيل في حياة أبيه، ويقولون إنه شوهد بعد تاريخ الإشهاد على وفاته، وإنما أشهده أبوه على وفاته خوفاً عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين

للدعوة، واستدلوا على هذا بالإشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه، إذ لم تجر العادة بمثل هذا الإشهاد لولا الحيطة والتقية.

والخلاف بين الإسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على إمامية إسماعيل، والإماميون الذين لا يسلمون الإمامة لإسماعيل وذريته طوائف متعددة، أهمها وأكبرها طائفة الإماميين المعروفين بالإثنى عشرين؛ لأنهم ينتهون بالإمامية إلى محمد المنتظر بن الإمام حسن العسكري، وعندهم أنه سيظهر في زمانه الموعود، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه.

ويتفق الإماميون على اعتقادهم عصمة الإمام في تبليغ شئون الإمامة؛ لأنهم مولئ السؤال والفتوى في أحكام الدين والدنيا، فلا يجوز الخطأ عليه في هذه الأحكام.

ويضيف الإسماعيليون إلى أسباب العصمة عقيدة التأويل، فإن أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين في العلم، والأئمة هم الراسخون في العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤمنون..

ولهذا يسمى الإسماعيليون بالباطنيين، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على أحكام الدين وأيات الكتاب، بل يقولون إن كل موجود على الأرض له نظير في الفلك الأعلى، وإن مقادير هذه الموجودات تابعة لمقادير التي تجري على نظرائها في السماء.

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضية والفلسفة على العموم، وكان الإماميون من عهد على رضي الله عنه يؤمنون بإلهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما إليه من كتب النجوم، ولكن الأئمة الإسماعيليين أمعنوا في دراسة هذه العلوم؛ لأنهم لاذوا بالخفاء في عهد انتشارها وازدهارها، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم الراسخ بشئون الإمامة في الدنيا والدين، فإذا سأله السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الإمام المستور الذي يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لإظهار ما خفي من أمور الدعوة وأمور الإمامة، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد.

ودخل عدد الأئمة نفسه في خصائص الأعداد، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب النجوم سرًا خاصًا في عدد السبعة وعدد الإثنى عشر، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد فتحات الوجه، كما يستشهدون عليه

بعد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بنى إسرائيل، وعلى هذا يدور
الخلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة: فهو سبعة أم اثنا عشر.. ولكل
منهم فيه كلام طويل..

وللإماميين فروق يبسطونها بين النبي والإمام والحجّة والنقيب، فالنبي يبعث في زمان بعد زمان، والإمام قائم في كل زمان، وقد يكون الإمام إماماً مستقراً فهو صاحب الحق في التوصية لخلفيته من بعده، أو إماماً مستودعاً فهو يحمل أمانة الإمامة لضرورة موقوتة، ثم يردها إلى أصحابها ولا حق له في التوصية لغيره، أما الحجّة فهو لازم في الخفاء إذا كان الإمام ظاهراً في العلانية: لأن الإمام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من حجّة يرجع إليها لاستبانته الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة، أما إذا استتر الإمام فلا بد له من حجّة ظاهرة، وقد يسمون الإمام بالناطق أو بالصامت تبعاً للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه.

أما النقباء فالغالب أنهم دعاة أو وكلاء، ولابد لهم من أئمة يرجعون إليهم في كل زمان..

أعلنت وفاة إسماعيل في حياة أبيه كما تقدم، فانعقدت الإمامة بعده لابنه محمد، وارتحل محمد من الحجاز إلى الرى؛ إما لأنه لم يُطق منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلوبيين؛ وإما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين، وقد لقب بالإمام المكتوم؛ لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر كلما تنبهت إليه العيون ولاحقته الظنوں، ثم ضاق المشرق كله بخلافاته فهجره عبيد الله إلى المغرب وكان أول من نوادي له بالخلافة الفاطمية..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. أما القائلون بانتسابه إلى ميمون القداح - كما سيلى - فهو في زعمهم محمد بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

ويوقف المؤرخ الهندي «مأمور»⁽³⁾ بين الروايتين توفيقاً محتملاً حد الاحتمال فيقول إن محمدًا المكتوم كان يخفي نفسه ويتغاضى طب العيون مداراة لحقيقة،

(١) كتاب الجدل والمناقشات في الخلفاء الفاطميين polemics on the origin of the Fatimi Caliphs

وإن اسم «ميمون» كان من الأسماء التي انتحلها في حال استئثاره، والقداح هو لقب الطبيب الذي يعالج العيون.

ولا نهاية للروايات والتخريجات التي تعلل سفره من المشرق إلى المغرب، فمن الرواية من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيماً بجوار حمص ورحل إلى مصر وهو يورى بالرحلة إلى اليمن، ومن قائل إن بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الإسماعيلي سراً قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر إلى تحذيره، ومن قائل إنه تلقى البشارة من كبير دعاته في المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل إلى المغرب ليتولى الأمر بنفسه في هذه الفترة الحاسمة. وتتفق الروايات على أنه حينما سافر إلى مصر وانتقل منها إلى المغرب كان مطارداً وكان على رأسه جعل^(١) لمن يأتي به حياً أو ميتاً حيث كان.

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة في المغرب إلى أبي عبيد الله الصنعاني من صنعاء اليمن، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن زكريا، وكان من ولاة الحسبة^(٢) في بغداد.

جاء في وصفه من كتاب - البيان المغرب في أخبار المغرب - لابن عذاري المراكشي وهو من أعداء الإسماعيليين - «فاختاروا منهم رجلاً ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبي عبدالله الصنعاني.. فسار أبو عبدالله هذا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعف الحيل.. ورأى في الموسم قوماً من أهل المغرب فلصق بهم وخالفتهم وكانوا عشرة رجال من قبيلة ملتفيين على شيخ منهم، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها، وسألهم عن مذهبهم فصدقوا عنه.. ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانيه، فلما حان رجوعهم إلى بلادهم سأله عن أمره وشأنه فقال لهم: أنا رجل من أهل العراق، وكنت أخدم السلطان، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال، فلم

(١) جعل: الجعل (بالضم) أجر العامل، وما يُعطاه المجاهد يستعين به على جهاده.

(٢) الحسبة: المال الذي يأخذه محاسب البلد على الموزونات والمكيلا.

أر لذلك وجهاً إلا تعليم القرآن للصبيان، فسألت أين يتأتي ذلك تأتياً حسناً فذكر لي بلاد مصر، فقالوا له: ونحن سائرون إلى مصر وهي طريقنا، فلن في صحبتنا إليها، ورغبوا منه في ذلك، فصحبهم في الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم إلى مذهبه ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء إلى أن أشربت قلوبهم محبته، فرغبوا منه أن يسيراً إلى بلادهم ليعلم صبيانهم، فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال لهم إن وجدت بمصر حاجتي أقمت بها، وإن فربما أصحبكم إلى القيروان، فلما وصلوا إلى مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم: لم أجد في هذه البلاد ما أريد، فرغبوا أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك...».

ولا يتسع الكلام في هذا المجال لسرد أعمال أبي عبيد الله في المغرب، فالذى عنيناه هنا هو الإشارة إلى أساليب هؤلاء الدعاة في دخول البلاد التي يقصدونها بالدعوة، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبًا لا طالبًا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله إذا استطاع، وقد سار أبو عبيد الله الشيعي على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستعمال إليه قبيلة كتامة القوية بعدها وشجاعة رجالها فاتخذ حوله بعد الحيلة وجراحته وهرم دولة الأغالبة أعون العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل إلى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦).

ذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التي رسمها لإقامة عرشه في إفريقيا ويسط كلمته من ورائها إلى الأقطار الإسلامية، فإن ملك المهدى في المغرب قد دام أربعين وعشرين سنة إلى أن توفي (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذي فتحت مصر في عهده وانتقلت من خلافة العباسيين إلى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدًا لهم الطريق في الداخل والخارج بالدعوة والسلاح.

* * *

إن تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام؛ لأنه تاريخ يغنى عن التوارييخ؛ إذ كانت هذه الدولة نموذجاً يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض في قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة.

فهي الدولة التي قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول إسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها، وأسست حقها على دعوة يتائب الخصوم من حولها على إنكارها، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل إلى هذا القرن العشرين.. فمن تلك الوسائل فن التخديل أو «الطابور الخامس» كما يسمى في العصر الحديث، ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص في نشر الدعوة الظاهرة والخفية، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لإنفاذ سياسة بعد أخرى، ومنها المراكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمحالس المحاضرة والمناظرة في أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء.

* * *

في قيام الدولة الفاطمية في الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة ل كانت هذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبیراته ومصادفاته. ولسنا في صدد الإفاضة في هذه الدراسة بتفاصيلها وفروعها، ولكننا نطرق منها في هذه العجلة ما له علاقة بالانتساب إلى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية في هذا البلد؛ لأن البلد الذي شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات في تاريخها الحديث.

* * *

النَّسَبُ



الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعاوى، وهي كذلك – ومن أجل ذلك – أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة.

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تملّيها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية، وهي قوية؛ لأنها لا تأتي عفوا ولا يكتفى المدعون فيها بإبدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الإعراض عنها، بل هم يدعونها ويحتالون على إيرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام السائغ المحقق، ثم يكررونها ويلحّون في تكريرها وتحتّلون الفرصة لنشرها في مظان الإصغاء إليها والرغبة في إثباتها.

وإذا كانت البواعث التي تملّيها متعددة متعددة كان ذلك خليقاً أن يزيدها قوة على قوة وإلحاداً على إلحاد، فهي تتوارد من جهات كثيرة وترجع إلى الظهور كرّة بعد أخرى، كلما خيف عليها أن تضعف، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات إليها.

إن الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا.

وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة.

لأن البواعث التي تملّيها تربّب السامع حين تكشف له، وقد يكون الإلحاد فيها مشككاً لمن يسمعها وكاشفاً لغرض والهوى من ورائها.

وإذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط إلى الروايات والأقاويل، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها، ومن لم يكن منهم مخترعاً لروايته لم يجهد ذهنه في التوفيق بين النقائض والتقرّب بين الأسانيد، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب، وتتّسر من هنا كما تكسب من هناك..

* * *

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة، وكانت البواعث إليها متعددة متجمدة، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات، ثم لا تثبت أن تعود أضعف الدعوات.

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب. وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصوماً كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلمو للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه.

فلم يكن أقرب إلى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مساعهم، فهذه هي الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتبثتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلقون دعوامهم بالتصديق والإيمان..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم إلى النبى ﷺ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الإسلامية الذين تسرى بينهم دعوى آل البيت، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص، وهو عهد النقص والأدبار الذى يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل، وعلى الإنصاف الواضح أو على الجور الصراح.

كان مصير الخلافة إلى الفاطميين نذيرًا بزوال عروش كثيرة، منها عروش العباسيين فى بغداد والإخشيديين فى مصر والأغالبة فى إفريقيا الشمالية والأمويين فى الأندلس، والأمراء الصغار المنبثين فى هذه الرقعة هنا وهناك من يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبدل والانتقال..

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين، ولكن العباسيين فى ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون.

عندما ضعفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون.

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين أنهم كانوا يدعون إلى خلافة العلوبيين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم آل البيت في رأي أتباع الدولة الجديدة. وبلغ من إيمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأي أن خلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلوبيين، كما فعل الرشيد والأمين. ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمة العلوبيون إلى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة في الإمام المستور، ثم شاعت الدعوة إلى العلوبيين باسم الفاطميين؛ لأنها أقرب الدعوات إلى بنوة محمد عليه السلام. فقد يقال إن العباسيين أبناء العباس عم النبي وإن العلوبيين أبناء على ابن عمه أبي طالب. أما الانتفاء إلى فاطمة الزهراء، فهو انتفاء إلى بيت النبي نفسه، وليس إلى الأعمام ولا أبناء الأعمام.

في أوائل الدولة العباسية، كانت دعوة آل البيت تشمل العلوبيين وال Abbasians، وكان الخلاف يسيراً بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين، وكانت قوة الدولة في نسأتها تصمد لهذا الخلاف الذي هان أمره ولم يبلغ أشدّه في أول عهده، وكان يكفي أن يقال عند اشتداده إن وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام.

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثير الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون في زوالها، وكثير كذلك شهادتها من آل البيت أبناء على وفاطمة، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقربتها من بيت النبوة، فتحول عطفهم إلى الشهداء المظلومين المشردين في أرجاء البلاد، وأصبح تشردّهم الذي يظن به أنه يضعفهم مددًا لهم من أمداد العطف والولاء، وأصبحت دعوة «الفاطميين» وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون؛ لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واحتلال حبل الأمور.

ومن الفاطميين هؤلاء يأتي الخطر الأكبر على بنى العباس، ومن نسبتهم إلى فاطمة الزهراء يأتي امتيازهم بحق الخلافة، وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمغضطهدين، فلأى شيء أقرب إلى مأثور السياسة من دفع هذا الخطر بإإنكار هذا النسب، ومن حصر الولاء لأهل البيت في القائمين بالأمر من بنى العباس؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا أنهم ينتسبون إلى ميمون القداح ابن ديسان الثنوى القائل بالإلهين، وتلقي التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتسبون إلى كل مذهب ونحلة^(١)، منهم كما أسلفنا الإخشيديون والأغالبة والأمويون والأندلسيون، وزاد عليهم من كان تابعاً للفاطميين ثم تمحل^(٢) المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر في الجزيرة العربية، بل قيل إن أناساً من العلوبيين شهدوا عليهم بادعائهم النسب في على وفاطمة عليهم السلام، ونسب إلى الشريف أبي الحسين محمد بن على المشهور بأخي محسن الدمشقى أنه كتب رسالة في تفنيد دعواهم ينكرها المقرىزى وينسبها إلى عبدالله بن رزام..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله إلى كتابة الإشهاد ببطلان نسب الفاطميين أنه سمع أبياتاً نظمها الشريف الرضى يقول فيها:

ما مقامى على الهاون وعندى
مقول صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الأعدادى
ويمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبيى ومولاه مولا
ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا
س جميمعاً محمد وعلى
إن ذلى بذلك الجد عز
وأوامى^(٣) بذلك الريمع رى

فأرسل إلى أبيه الشريف أبي أحمد الموسوى يقول: إنك قد عرفت منزلتك مما تقدم لك في الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة

(١) نحلة: بكسر النون: الدعوى. وما نحلتك؟ أى ما دينك ومذهبك.

(٢) تمحل: تمحل الشيء: طلبه بحيلة وتكلف.

(٣) أوامى: الأوام: شدة العطش.

ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك، وقد بلغنا أنه قال شعرا - هو هذه الأبيات - فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر في النقابة- نقابة الأشراف - والحج، وهما من أشرف الأعمال ولو كان بمصر لكان كبعض الرعاعيـاـ.

فأحضر أبو أحمد ولده الرضي فأنكر الشعر، فأمره أن يكتب بخطه إلى القادر بالاعتذار وإنكار نسب الحاكم بأمر الله، فأبى، فقال له أبوه: «أتکذبـنـى فـى قـولـى؟» فقال: «كلا ما أكذبـكـ، ولكنـ أخـافـ منـ الـدـيـلـ وـمـنـ الدـعـاـةـ فـى الـبـلـادـ» فقال له أبوه: «أتخـافـ منـ هـوـ بـعـيـدـ عـنـكـ وـتـسـخـطـ مـنـ هـوـ قـرـيـبـ مـنـكـ... وـهـوـ قـادـرـ عـلـيـكـ وـعـلـىـ أـهـلـ بـيـتـكـ؟...» وـغـضـبـ أـبـوـهـ وـحـلـفـ لـاـ يـقـيمـ مـعـهـ فـىـ بـلـدـ فـلـمـ بـلـغـ الـأـمـرـ بـيـنـهـمـاـ هـذـاـ الـمـبـلـغـ حـلـفـ الرـضـيـ أـنـ هـذـاـ الـمـحـضـرـ أـنـ الـمـهـدـىـ الـفـاطـمـىـ لـمـ يـكـنـ يـسـمـىـ عـبـيـدـ اللـهـ، وـأـنـ اـسـمـهـ الصـحـيـحـ «ـسـعـيـدـ بـنـ أـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ الـقـدـاحـ بـنـ مـيـمـونـ بـنـ دـيـصـانـ»..

وقد اختلفوا في نسبته تارة إلى الم Gors و تارة إلى اليهود.. واختلفوا في الجد الذى كان مجوسـياـ أو يهودـياـ فقيل إن عبـيدـ اللـهـ كان ابنـ حـدـادـ يـهـودـىـ مـاتـ عنـ زـوـجـةـ فـبـنـىـ بـهـاـ الـحـسـيـنـ بـنـ أـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ مـيـمـونـ وـتـبـنـىـ عـبـيـدـ اللـهـ ، وـقـيلـ إنـ عـبـيـدـ اللـهـ قـتـلـ فـىـ سـجـنـ سـجـلـمـاسـةـ بـالـمـغـرـبـ فـأـشـفـقـ دـاعـيـهـ (ـأـبـوـ عـبـدـ اللـهـ الشـيـعـىـ) فـسـمـاهـ عـبـيـدـ اللـهـ وـبـاـيـعـهـ بـالـخـلـافـةـ، وـقـيلـ إنـ أـمـةـ لـلـإـمـامـ جـعـفـ الصـادـقـ عـلـقـ بـهـاـ يـهـودـىـ فـوـلـدـتـ مـنـهـ عـبـيـدـ اللـهـ وـنـشـأـ فـىـ بـيـتـ الـإـمـامـ مـنـتـمـيـاـ إـلـىـ أـهـلـ الـبـيـتـ.

وقد كانت لهجة البيان العباسـيـ غـاـيـةـ فـىـ الـعـنـفـ تـنـمـ عـلـىـ الغـيـظـ وـتـخـلـوـ مـنـ الدـلـلـ، وـمـنـهـ «ـإـنـ هـذـاـ النـاجـمـ بـمـصـرـ هـوـ مـنـصـورـ بـنـ نـزـارـ الـمـتـلـقـ بـالـحاـكـمـ» - حـكـمـ اللـهـ عـلـيـهـ بـالـبـوـارـ وـالـدـمـارـ - اـبـنـ مـعـدـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ بـنـ مـحـمـدـ اـبـنـ سـعـيدـ - لـاـ أـسـعـدـهـ اللـهـ - وـإـنـ مـنـ تـقـدـمـهـ مـنـ سـلـفـهـ الـأـرـجـاسـ الـأـنـجـاسـ عـلـيـهـمـ لـعـنـةـ اللـهـ وـلـعـنـةـ الـلـاعـنـينـ خـواـرـجـ لـاـ نـسـبـ لـهـمـ فـىـ وـلـدـ عـلـىـ بـنـ أـبـىـ طـالـبـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ، وـإـنـ مـاـ اـدـعـوـهـ مـنـ الـأـنـتـسـابـ إـلـيـهـ زـورـ وـبـاطـلـ، وـإـنـ هـذـاـ النـاجـمـ فـىـ مـصـرـ هـوـ وـسـلـفـهـ كـفـارـ فـسـاقـ مـلـحـدـوـنـ مـعـطـلـوـنـ، وـلـلـإـسـلـامـ جـاحـدـوـنـ، أـبـاحـوـ الـفـرـوجـ وـأـحـلـوـ الـخـمـورـ وـسـبـوـاـ الـأـنـبـيـاءـ وـادـعـوـاـ الـرـبـوـبـيـةـ..».

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم في العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين عن الفاطميين إن المعروف عنهم أنهم «بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي، وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم أنه علوى فاطمى، ثم ترقى به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام متظاهراً بالتشيع متستراً به حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم، ونشأت ذريته على ذلك منطويين يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة ولا أسروه، والدعاة منبثون لهم في البلاد، ويقى هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وفي أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام، وأخذت الإفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الأتابى وتقديمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة...».

ومن اعتدل من المؤرخين في الإنكار والسباب، كابن خلkan، أيد التهمة بالقصص التي تؤكدها لو أنها ثبتت كالقصة التي اشتهرت عن سيف المعز وذهب، وإن ابن طباطبا سأله المعز عند وصوله إلى مصر عن نسبة فسل سيفه، فقال: «هذا نبى» ثم نثر عليهم الذهب وقال: «وهذا حبى» وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه.

وظاهر بغير عناء أن الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية؛ لأن الذين وقعوا من الأشراف العارفين بالأنساب قد أكرهوا على توقيعها، ومن وقعها، غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة في مسائل النسب والتاريخ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين إلى ديستان الثنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب إلى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الإسلامية بنحو أربعة قرون، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسمى المؤرخون حيناً بديدان وحياناً بزندان

أو دندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة إليها في قول أحد من أولئك المؤرخين، وإنما قيل عنه إنه كان على ثروة كبيرة وعاون إسحاق بن إبراهيم بن مصعب على الثورة في عهد الخليفة المأمون.

وادعاء الموقعين للوثيقة أن خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا المويقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ، بل ثبت من هذه الواقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح في قصور الخلفاء من التسرى واقتناء الإمام، وقد خولط الحاكم بأمر الله في عقله فجنه إلى التنفس^(١) في الطعام وحرم المباح منه بدلًا من إباحة الحرام!..

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشير والتثنيع في نسبة الفاطميين تارة إلى المجوس وتارة إلى اليهود، فكأنه لا يكفي أن تسقط دعواهم في الخلافة حتى تسقط دعواهم في الإسلام وترجع نسبتهم إلى أبعد الملل عن الديانة الإسلامية في عرف ذلك العصر على الخصوص، ثم يقال عنهم ما لا يقال في جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات.

والقصة التي رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب: لأن ابن طباطبا الذي قيل إنه سأله سيف المعز عن نسبة عند وصوله إلى مصر قد توفي قبل قدوم المعز إليها بأربع عشرة سنة، وابن خلكان صاحب القصة هو الذي ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال: لعله أمير آخر. مع أن اسم «المعز» هو الذي دار عليه مثل السيف والذهب المشهور، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذي وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له إلا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى في الخلافة..

وقد روى ابن خلكان أيضًا أن العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات:

(١) التنفس: تتنفس الرجل: تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه.

فإن صحت هذه الرواية فالتحدي فيها بإظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف؛ لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق التاريخ الذي عمد فيه الأئمة العلويون إلى الاختفاء والتذكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاء دون غيرهم من أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم، وإنما العجيب في الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذي يتحداه المتحدي بإظهار نسب كنسب «الطائع» العباسى، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابه وزيره عضد الدولة إلى العزيز وحمله الهدايا إليه واعترافه بنسبيه وإنه تلقى منه الشكر «لإخلاصه في ولاء أمير المؤمنين وموذته ومعرفته نحو إمامته ومحبته لآياته الطاهرين».

وقد تواتر أن عضد الدولة هم بالخطبة في بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاء من أصحابه عن هذا العزم، وقال له: «إنك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ولكنك إذا أقمت علويًا في الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك...».

وقد أشار صاحب «الروضتين في أخبار الدولتين» إلى قيام الدولة الأيوبيية بعد الدولة الفاطمية، ولكنه يعلم أن صلاح الدين الأيوبي أذن بالخطبة في يوم

الجمعة للخليفة الفاطمي، وإنه إنما حُول الخطبة إلى الخليفة العباسي بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وإنه أطاع في ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكي، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن في هذا التغيير، ومرجعه الأهم إلى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة؛ إذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون في اتباع مذهب أهل السنة وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سر إلى الألقاب، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وع ضد الدولة، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين.

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيطون على البعد في كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية فأبو المعالى الفارسي يقول في كتابه «بيان الأديان» إن ميمونا القداح من مصر، وجملة المؤرخين يقولون عنه إنه من فارس، وكل منهم يحيط إلى المكان بعيد حيث يتعدى عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق في مكان قريب..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون إن شهادة الشاهدين بالطعن في نسب القوم كانت على السمع، وأصاب المقريزى حين قال عن العلوبيين إنهم «على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف».

والمقريزى وابن خلدون قد أرضا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل – وهو ما سنبان غير مت Shi'ites – ولكنها نظرا في مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى – هو عريب بن سعد – وكان من يوالون الأمويين فلم يقدح في نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية في الأندلس قدحا فيهم.

وغاية ما ننتهي إليه في هذه المسألة - مسألة النسب الفاطمي - أن المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه، وأن مطاردة عبيد الله عند اتجاهه إلى المغرب دليل على أن العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته، وإن مبادئ الشيعة لأبنائه - سواء شيعة الديلم في بغداد أو شيعة الزيديين خاصة في اليمن - ترجح صدق انتسابهم إلى السيدة فاطمة الزهراء إن لم تؤكد كل التوكيد، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا في صدر هذا الفصل أضعف الدعوات؛ لأنها الدعوى المنتظرة التي تملتها البواعث المتعددة فلا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضوا لإنكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينکروه...

* * *



البَاطِنِيَّة

كان المنتفعون بالطعن في نسب الفاطميين كثيرين متعددين، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان، وقد استعنوا بالحول والحيلة في ترويج مطاعنهم واحتراز أقاويمهم فاستمالوا إليهم في البلاد الإسلامية من لا مصلحة له في مطاعنهم، ولكننا نحسب - بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه - أن المطاعن في النسب لم تكتب على المصدقين إلا القليل الذين ينظرون إلى الأمر كله بغير اكتراث، أو يكترون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون. أما الأثر البالغ في تنفير الناس من الفاطميين فإنما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم أن الباطنيين جميعاً إسماعيليون من ينتمون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية.

فمن زمن الناس في المشرق يفهمون أن الإسماعيلية هي كلمة مرادفة للباطنية، ويلصقون بالإسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوى والمنكرات، ومن الفضائح والقبائح، وهي في الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج إلى جهد كبير في التنفير والتشهير.

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين أن بعض المجاهرين بالإباحة والاجتراء على مناسك الدين الإسلامي كالقراطمة في البحرين كانوا يعلنون التشيع للإسماعيليين، أو بعبارة أخرى للفاطميين، فوقر في الأذهان أن دعوة الإسماعيلية جميعاً إباحيون، وأن الباطنية هي إخفاء المنكرات وإعلان التشيع للتغريب والتضليل.

وقد قيل: إن رجلاً من دعاة الباطنية يدعى «على بن فضل» ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعرها في روايات مختلفة:

خذى الدف يا هذه والعبى
وغننى هزازيك ثم اطربى

تولى نبى بنى هاشم
 وهذا نبى بنى يعرب
 أحل البنات مع الأمها
 ت، ومن فضله زاد حل الصبى
 وقد حط عنا فروع الصلا
 ة وحط الصيام فلم يتعد
 إذا الناس صلوا فلا تنهضى
 وإن صوموا فكلى واشري
 ولا تطلبى السعى عند الصفا
 ولا زورة القبر فى يثرب
 ولا تمنعى نفسك المعرس
 ين من الأقربين أو الأجنبي
 فكيف حلت لهذا الغر
 يب وصرت محرمة للأب
 أليس الغراس لمن ربه
 ورواه فى الزمان المجدب

وقيل على الجملة: إن الباطنيين يظهرون الإسلام ليكيدوا له ويدسوا عقائد
 الشرك والضلال بين أهله، وإنهم فى الأصل مجوس منظوون على بغض شديد
 للعرب ودينهم لم يقدروا على هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقوة، فاحتالوا
 على مأربهم بالدسسة والمكيدة، وأنشأوا نحلتهم لاستدرج المسلمين وتحويلهم
 شيئاً فشيئاً من عقائدهم إلى التعطيل والإباحة والكفر بالبعث والمعاد وإنكار
 الفرائض والعقائد والأديان.

قالوا: وإن الإسماعيلية خاصة يبثون دعوتهم على درجات ويأخذون
 المواثيق والأيمان على مريديهم ألا يفشو لهم سراً ولا يظاهروا عليهم أحداً، ثم
 يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدي الأئمة المعصومين،

ثم تلقين بعض الرموز التي تروق المريد وتشوّقه إلى المزيد من الأسرار، ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها، ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانٍ لها ثم الخوض في المذاهب الفلسفية التي تنتهي في الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلق إلى تأليه الإمام على مذهب الحلول، وأنه هو روح الله حلّت في جسد إنسان، ولعمرى ماذا في وسع عشرة أو عشرين من «الواصلين» إلى هذه الدرجة في أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سراً بإباحة الشهوات ورفض الأديان؟!

وآفة الباحثين في هذه الألغاز والإشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعنّتون أنفسهم في جمع هذه الأخبار، فإذا هي تتناقض ولا تستقر على قرار.

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التي يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهي في السريرة الإنسانية وما يجوز فيها وما لا يجوز، وما يجب أن يرفض بداعه، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك إلا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات.

فمن الطريف حقاً أن يقيّد المريدون بالأيمان والأقسام ليكتموا السر ثم يأتي السر المكتوم فإذا هو سر يحلّم من جميع تلك الأيمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم إلى يقين جديد!

وأطرف منه أن يقال عن رجل: إنه معطل منكر للمعاد منكر للأديان، منكر للوعود الإلهية ثم يقال عنه: إن كراهة دين من الأديان تبعه إلى الجهاد سراً وعلانية والاستماتة في الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أهلاً في يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون.

إنما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة فلن يبقى في نفسه من الحماسة الروحية ما يهون عليه المسقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة: لأن دين قومه وغيره من الأديان عنده سواء.

كان تصديق هذا مفهوماً في القرون الوسطى؛ لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون أن الكافر يكفر في سبيل الشيطان وأنه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السلطة والسعادة بدليلاً من نعيم السماء، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم: إنهم على صلة بالشيطان وإنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والوجود واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون في حساب المؤمنين.

أما في عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيّل الإنسان ملحداً ينكر كل شيء ويتجدد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كائناً ما كان، إلا أن يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في بيته، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالأتباع والمریدين من الجهل بحقيقة إلى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغوايته التي يلبسها على الناس بتلبيس من الغاز العقائد وأسرار الديانات.

وقد شغلت طائفة المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم في اليمن وفارس وادعائهم النسبة إلى الإسماعيلية في المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصي واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والإسماعيليين جد تحتمل البحث، ويؤدي البحث فيها إلى ثبوت العلاقة بين هولاء وهوئاء..

وأغرب الغرائب أن أحداً من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل: لماذا لم يظهر في المغرب - حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها - أناس من دعاة الإباحية والعصيان، كالذين ظهروا في البحرين واليمن وفارس وبعض بقاع الشام؟..

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبيّن الناظر في التاريخ أن الانتماء إلى الإسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون في بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها، فهم في حاجة إلى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع، وانتماؤهم إلى الفاطميين أو الإسماعيليين هو السند الذي يرکنون إليه في محاربة الدولة العباسية وإنكار حقها في الطاعة والولاء، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاها دعاة العصيان والمعاصي لكن أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الإباحة هي بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين..

ولقد حدث فعلاً أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا إلى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النبوة^(١) بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة، وسُوّل لهم الطمع أنهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف من بلاد الشام.

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة: إن الإباحة هي الدرجة السابعة أو الثامنة التي يصل إليها المرید المترقب في كشف الحجب وعلم الأسرار، ثم يقال من جهة أخرى: إن هذه الإباحة سر مباح في الطريق يعکف عليه المؤمن جهرة ويردده الشعرا ويتغنى به القيان..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ في بحث من البحوث كما انفصل في بحث قضية الإسماعيلية والباطنية، ولهذا كثُر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح، ونحسب أن محنَة التاريخ هنا أصعب من كل محنَة؛ لأن المؤرخ هنا يعمل عمليَن ولا يستقل بعمل واحد: يعمل لمعرفة الحقيقة ويُعمل لاستخلاصها من الأباطيل التي تحجبها عن عمد وتدبير، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحرف.

إننا عرفنا ألواناً من النظم السرية التي اصطلحت عليها الجماعات المستترة في العصور القديمة، ويعضها دينى يتَّخذ له أغراضًا سياسية كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية، ولا ندرى الآن كيف تكشفت هذه النظم المزعومة، بل لا ندرى هل هي في الحق كانت موجودة متبعة أو هي أوهام وتخمينات من وحي الاستطلاع والاستنباط.

ولكننا إذا سمعنا عن نظم سرية في عصور التاريخ القريب فلا معنى في هذه الحالة للإحالة على القدم أو للخبط في الظنون، إذ يحق لنا في هذه الحالة أن نسأل عن المرید الذى تدرج في مراتب الباطنية حتى وصل إلى قيادة الدعوة ثم خانها وأفْشى أسرارها، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواصيسه حتى كشف عن بواطنها، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التي نشرت بعد العثور عليها في إبانها أو بعد انقضاء زمانها. ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحداً تحدث عن مرید واحد صعد

(١) النبوة: التجاُفُ والتَّبَاعُ.

على مراتبها من درجة التلميذ المبتدئ إلى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها، ولا أن أوراقاً لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت في أوانها أو بعد أوانها، بل زعم الرواية أن الذي فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعوته، قبل دعوى إسماعيل ابنه وخلفائه، هو عبد الله بن ميمون القداح. ومن هو عبد الله بن ميمون القداح؟ هو واسع النظام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفي والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم إسماعيل بن جعفر الصادق جد الإماميين أجمعين...!

فعبد الله هذا هو الذي قال فيما زعم الرواة:

هات اسقني الخمرة يا سنب

فایس عندي آننى انشر

أما ترى الشيعة في فتننا

يُغْرِهَا عَنْ دِينِهَا جَعْفَرُ

قد كنت مغروزاً به برهة

ولم تكفل قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها:

مشيت إلى جعفر حقبة

فالقیته خادعا یخلب

يجر المعلم إلى نفسه

وکل ای حب اے ی جذب

فلا و كان أمركم صادقا

لما ظل مقتولكم يُسحب

وَلَا غُضْمَانٌ كُمْ «عَتَيْقٌ» وَلَا

سما «عمر» فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أنباء القتلى من آل فاطمة وعلى، سراً مجهولاً يوجب الشك إن لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلقيقه. وخير من هذه الأسرار وغيرها

أنه عدل عن الدعوة الإسماعيلية فيما تواترت به أخباره في المشرق والمغرب، فما زالت دعوة القداح إلى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لإسماعيل وأبناء إسماعيل.

وعلى هذا النحو يتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو الواقع صدمة توجب الشك إن لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلقيه. وخير من هذه «الورقيات والنصيات» أن نطمئن إلى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها إلى قول صحيح أو نقد صحيح.

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التي كانت شائعة في العالم الإسلامي من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة، ونخص منها بالنظر ما يرجع إلى مطالبات الحكم من جهة ومساعي التكتم والمداراة من جهة أخرى.

فالدولة العباسية دخلت في دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة في الحكومة القائمة وكثير المنفصلون عن الدولة والمنتقضون عليها، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه. فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبي مع وجود عترة النبي من أبناء على وفاطمة، ومن اعتراف لبنى العباس بالحق الشرعي في الخلافة زعم أن الحكم في دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواترون مع الولاة على انتهاي الأموال وبدلها للصناعات والأعوان، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لإنكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للأدعية الواثبين عليها، وتتابع المنتحرون للمعاذير الدينية في طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين.

وفي تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثلاً لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبي الذي نسب في بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين في الكوفة. فإنه ادعى النبوة أو المهدية في بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والي حمص من قبل الإخشيد فاعتقله ولم يطلقه إلا وقد عدل عن دعواه،

ومن أحاديث المعجزات التي طولت بها كما جاء في «رسالة الغفران» أنهم قالوا له في بني عدي: «ها هنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسلاً. فمضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل وتحيل حتى وتب على ظهرها، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة^(١) وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم».

قال أبو العلاء بعد ذلك: «وحدثت أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً، وأن أبي الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلاها في يومك، وعد له أياماً وليالى.. فبرئ الجرح فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد، ويقولون إنه كمحيي الأموات.. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية، أو في غيرها من السواحل، إنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلب قد مات، فلما عاد الرجل ألمى الأمر كما ذكر..».

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية في عنفوان شباب أبي الطيب، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زماناً عن دعوته ولم يعدل عن طلب الولاية من كافور الذي كان خصياً مملوكاً فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم: «دون الله يعبد في مصر..!».

قال داعي الدعاء يصف حال الناس في تلك الأزمنة من كتاب أرسله إلى أبي العلاء المعرى: «.. إنني شقت بطن الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشاهدت الناس بين رجلين: إما منتحلاً لشريعة صباً إليها ولهج بها إلى الحد الذي إن قبل له من أخبار شرعيه إن فيلاً طار أو جملًا باض لما قابله إلا بالقبول والتصديق، ولكن يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه، فالعقل عند من هذه سبيله في مهواه ومضياعه.. أو منتحلاً للعقل يقول: إنه حجة الله تعالى على عباده، مبطلاً لجميع ما الناس فيه، مستخفاً بأوضاع الشرائع، معترفاً مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها، لكونها مقمعة للجاهلين، ولجاماً على

(١) المسمحة: أسمحت الدابة لانت وانقادت بعد استصباب.

رءوس المجرمين المجازفين، لا على أنها نخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الأخرى. فلما رمت بي المرامى إلى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ، وفقه الله، بفضل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضع به البرهان والدليل، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين، وفي أمره متبabilين، فكل يذهب فيه مذهبها ويتبعة من تقاسيم الظنون سببا، وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا، فحفظته بالغيب، وقلت: إن المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب، وقام فى نفسي أن عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقىة سترا، وأمرا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا، ولما سمعت البيت:

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى

لتسمع أنباء الأمور الصحائج

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده، وتأكدت عهوده، وقلت: إن لساننا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا، ويفتق من هذا العظيم رتقا، للسان صامت عنده كل ناطق، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا، وأحاول أن أرفع بالفخر منارا، بمعرفة ما تخلف عن معرفته المختلفون واختلف فى حقيقته المختلفون...».

وداعى الدعاء صاحب هذا الخطاب هو «أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران» صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية، كتب رسائله إلى حكيم المعرفة يناقشه فى تحريم اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيمة، مستعظاما على المتقولين أن يتهموا بإنكارهما حكيمًا كأبى العلاء، وقد استعار من اسمه «موسى بن أبي عمران» تفسيرًا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور.

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكم وقوتها الخفية ننقل ما رواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه «إن حсадه أغروا به وزير حلب فجهز لإحضاره خمسين فارسا ليقتله، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلس له بالمعرفة واجتمع بنو عمه وتآلموا لذلك فقال: إن لي ربا يمنعنى، ثم قال كلاما منه ما لا يفهم، وقال: الضيوف الضيوف. الوزير. الوزير. فوقع المجلس على الخمسين فارسا

فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده».

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالى أنه قال: «حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال: دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعرى زنديق لا يرى إفساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل، فأمر محمود بحمله إليه من المعرة ويعث خمسين فارساً ليحملوه، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة، فدخل عليه عمه مسلم ابن سليمان وقال له: يا بن أخي! قد نزلت بنا هذه الحادثة، والملك محمود يطلبك، فإن منعناك عجزنا وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار، فقال: هون عليك يا عم ولا بأس عليك، فلى سلطان يذب عنى. ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل، ثم قال لغلامه: انظر إلى المريخ أين هو» فقال فى منزلة كذا وكذا، فقال: زنه واضرب تحته وتدأ، وشد فى رجل خيطاً واربطه إلى الورت، ففعل غلامه ذلك، فسمعناه وهو يقول: يا قديم الأزل! يا علة العلل! يا صانع المخلوقات! وموجد الموجودات! أنا فى عزك الذى لا يرام وكنفك الذى لا يضام، الضيوف الضيوف.. الوزير الوزير. ثم ذكر كلمات لا تفهم، وإذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل: وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير. قال يوسف بن على: فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال: من أين أنت؟ فقلت: من أرض الهركار. فقال: زعموا أننى زنديق، ثم قال: اكتب. وأملأ على أبياتا من قصيدة أولها:

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى

من غفلى وتوالى سوء أعمالى^(١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الإسلامي فى القرن الرابع خاصة خلية أن ينجم فيها عشرات ممن يستهونون الناس بالأسرار الباطنة؛ لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب: طالب الدين وطالب الدنيا، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة^(٢)، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود،

(١) كتاب أبي العلاء المعرى للمرحوم «أحمد تيمور باشا».

(٢) العيافة: زجر الطير لمعرفة مساقطها، وأصواتها فيتفاعل أو يتشارع بها.

وخلائق أن يقف النظر طويلاً عند قول داعي الدعاء أنه يطلب سرًا من أبي العلاء، وأنه قام في نفسه أن عند أبي العلاء «من حقائق دين الله سرًا قد أسبل عليه من التقى ستراً». فإنه قد يكون في هذا القول مادحًا أو مازحًا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من «الباطنية» التي يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين..

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعي الدعاء في الدولة الفاطمية، وهو الرجل الذي ينتهي إليه كل سر، ويصل إليه التلميذ بعد درجات ليس مع منه - فيما زعم الزاعمون - أن الدين لغو وأن القيامة وهم وأن المحرمات مستباحة للعارفين، فلو كانت هذه رسالته التي ينتهي إليها كل متقدم في درجات الأسرار فما حاجته إلى محاسبة أبي العلاء على الظنون التي تداعى عنه في أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب؟ لقد كان الرضي عن مذاهب الزندقة جميعاً أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها، فإنهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول إليه، بعد طول العناء.

إلا أن الخلاصة الثابتة في ذلك العصر أن «الباطنية» الواقعية حالة من الحالات التي لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعائه المغرضين، فهناك «باطنية» يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم، وادعاء الأسرار في تلك البيئة أمر متظر مترب لا غرابة فيه، وأقرب ما يكون هذا الادعاء إلى من يطلب المتفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعمله ويتعلم منه غيره، وفقاً لشرطه وتدبيره.

وقد صار المجتمع الإسلامي إلى تلك الحالة في القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة..

فأما التمهيدات التي هي من فعل السياسة فهي ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات، وأما التمهيدات التي هي من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهي انتشار الفلسفة ونشأة البحوث العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد، ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارئ في غير بحث ولا مبالاة.

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين؛ لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم.

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب إلى التجديد والتغيير، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم، فكان من الطبيعي الذي لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند «الواصلين» المتمكنين من بواطن الأسرار، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يؤمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد، أو كانوا من غير المتصوفة وال فلاسفة أقواماً يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة، وهي علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم.

ولم يكن الفارق بني علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم في ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبيين، فإن الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التي لا تقبل الفساد على كواكب السماء، وأن الصلة بينها وبين الإنسان تتوقف على الرياضة والصفاء، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح في العالم العلوي ما أودعه الله فيه من الدلائل والإشارات.

وإذا كانت «الباطنية الواقعية» قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية، وقد أوقعت في النفوس أن ناسكا ضريراً يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم، فمن الخلط أن يقال: إن الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية، وإن هذه الدعوة مسؤولة عن كل ما كان يستباح في الخفاء، وكل ما تذرع به الطامعون في الحكم من ذرائع الدنيا والدين..

* * *



البَاطِنِيَّةُ الْفَاطِمِيَّةُ

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو إسماعيلية، إلى جانب هذه الباطنية الواقعية..

لم يقم الدليل على انتفاء الباطنية الفاطمية أو الإسماعيلية إلى داعية من المجروس أو اليهود دبرها تدبيراً ولفقها تلقيقاً لهدم الإسلام خاصةً وهدم الديانات عامةً، وتلقين «الواصلين» دروس الكفر والتعطيل وإنكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات، كراهة للعرب ودولتهم، وانتقاماً منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان..

فالتهمة ضعيفة؛ لأنها جاءت من مغرضين غرضهم معروف، وهي ضعيفة بعد هذا؛ لأنها مضطربة متناقضه لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة، فأصل الدعوة تارة من المجروس وتارة من اليهود، ومرة يرجع أصلها إلى دیسان الذى ظهر قبل الإسلام، ومرة أخرى يرجع إلى ابن القداح الذى يتبعين من شعره أنه مسلم وأنه شک فى الإمام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه؛ لأن أئمة الشيعة يُقتلون وينهزمون.

وفي التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تجرى جرى المأثور من طبائع النفوس، فإن الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب إجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان.

ومن المشكوك فيه بعد هذا جمیعه أن ينهدم الدين إذا كفر به فى كل عصر طائفة من «الواصلين» معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع، ولم يزل الشك يتسرّب إلى آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شکهم لأنفسهم أو يطّلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم؛ ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد.

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا في العقائد خبط عشواء وجهروا بمذهب من مذاهب الفلسفه أو التصوف ينكره الإسلام الصحيح ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الإمام عليه السلام إلى عهدها الذي نحن فيه، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الإمام على ولا على أحد من بناته الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتصوه.

ففي حياة الإمام على كان عبدالله بن سبأ وأصحابه يؤلهون علياً ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبي وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح. وبعد مقتل الإمام نشط أصحاب النحلة الكنسانية وأعادوا مثل هذا القول في حياة «محمد بن الحنفية». وقيل عن المختار الثقفي داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآن يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه في الصلوات. ومكان الإمام وابنه محمد في الإسلام أرفع من أن يتطاول إليه من أجل هذا عدو يلتجئ في عدوانيه فضلاً عن الولي والصديق. وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون في ضلالتهم بعد أن برأ منهم الإمام على وعاقبهم بالحريق، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام في الحجاز وتركهم بالعراق يلجون في الادعاء له والادعاء عليه.

ولم يخل عصر الإمام جعفر الصادق- أبي إسماعيل رأس الإسماعيليين- من داعية يفترى على الأئمة العلويين، وهم أحيا، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذي كان يقول بتشخيص الجنة والنار، وزعم في مبدأ أمره أن أولاد الحسن والحسين أنبياء الله، ثم زعم أنهم أرباب وأن الإمام جعفرا إليه يُعبد فلعله جعفر الصادق ويرأى منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق «فادعى بعد ذلك في نفسه أنه إله، قال أتباعه إن جعفرا إله.. غير أن أبي الخطاب أفضل منه وأفضل من على وجوه شهادة الزور على مخالفاتهم»..

وكان غيرهم كذلك يجذبون شهادة الزور على المخالفين، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنويين.

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للإمام على وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية، فأنكرهم الخليفة الفاطمي حين خرجوا على

الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج. وكتب الخليفة القائم وهو بال المغرب إلى داعية القرامطة يقول له: «العجب من كتبك إلينا ممتناً علينا بما ارتكبته واجترمه باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذي هو يعين الله في الأرض يصافح بها عباده، وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمين من لسانه ويده!»..

وعلى خلاف ما قيل عن إباحة المحرمات في المذهب الفاطمي، ثبت من نصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون في الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومربيهم بالقصد فيه. وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات: «الزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثير منها والرغبة فيهن فيتتنفس عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم^(١)، فحسب الرجل الواحد الواحدة!..».

وعلى خلاف دعوى الريوبوبية كان المعز هذا - وهو أعلمهم بالتنجيم - يقول كما روى عنه القاضي النعمان في كتاب «المجالس والمسايرات»: «من نظر في النجامة ليعلم عدل السنين والحساب ومواقع الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ!..».

وكان العزيز كالمعز في هذا المعتقد كما قال أخوه تميم في إحدى قصائده:

ولما اختلفنا في النجوم وعلمناها

وفي أنها بالنفع والضر قد تجري

فمن مؤمن منا بها ومكذب

ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى

ومن قائل تجري بسعده وأنحس

وتعلم ما يأتي من الخير والشر

(١) نحائزكم : النحية: الشدة.

فَعَلِمْتَنَا تأوِيلَ ذَكْ كَلَه

بِمَا فِيهِ مِنْ سُرٍ وَمَا فِيهِ مِنْ جَهْرٍ

عَنِ الطَّاهِرِ الْمُنْصُورِ جَذْكَ نَاقْلَا

وَكَانَ بِهَا دُونَ الْبَرِيَّةِ ذَا خَبْرٍ

فَأَخْبَرْتَنَا أَنَّ الْمَنْجَمَ كَاهِنٌ

بِمَا قَالَ، وَالْكَهَانَ مِنْ شِيَعَةِ الْكُفَّرِ

وَإِنْ جَمِيعَ الْكَافِرِينَ مَصِيرُهُمْ

إِلَى النَّارِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ

فَجَمِعْتَنَا بَعْدَ اخْتِلَافٍ وَمُرِيَّةٍ^(١)

وَأَفْتَنَنَا بَعْدَ التَّنَافُرِ وَالْزَّجْرِ

وَأَوْضَحْتَ فِيهَا قَوْلَ حَقٍّ مِبْرَهْنٍ

يَجْلِي ظَلَامَ الشَّكِّ عَنْ كُلِّ ذَيْ فَكْرٍ

فَعَدَنَا إِلَى أَنَّ الْكَوْكَبَ زَيْنَةٌ

وَفِيهَا رَجُومُ الْشَّيَاطِينِ إِذْ تَسْرِي

مَسْخَرَةً مُضْطَرَّةً فِي بِرْوَجَهَا

تَسِيرُ بِتَدْبِيرِ إِلَهٍ عَلَى قَدْرٍ

وَإِنْ جَمِيعَ الْغَيْبِ لِلَّهِ وَحْدَهُ

تَبَارِكُ مِنْ رَبِّ وَمِنْ صَمْدٍ وَتَرِ

وَمَا عَلِمْتَ مِنْهُ أَلَّمَّةً إِنْمَا

رَوْوَهُ عَنِ الْمُخْتَارِ جَذْهَمُ الطَّهْرِ

وَقَدْ خَوْلَطَ خَلِيقَةً مِنْ خَلْفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ فِي عَقْلِهِ – وَهُوَ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ – فَلَمْ

يُثْبِتْ مِنْ تَصْرِفِهِ أَنَّهُ تَلَقَّنَ مِنْ آبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ مِذَهَبَ الإِبَاحَةِ وَادِعَاءَ الرِّبُوْبِيَّةِ، وَأَنَّهُ

وَرِيَثَ قَوْمَ الْيَهُودِ أَوِ الْمَجُوسِ مَنْدَسِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ لِيَفْسُدُوهُ وَيَنْقُضُوهُ، بَلْ

(١) مُرِيَّةُ الشَّكِّ وَالْجَدْلِ.

ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور، فإنه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه، وأمر ألا يزيد الناس في السلام حين يدخلون إليه على قوله: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة: إنه كان في تخلطيه وتجديفه^(١) فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال: إنه تولى العرش وهو يعلم أنه يهودي أو مجوسى يستدرج المسلمين إلى الكفر والإباحة وإنه يهدم دولته ودولة الإسلام كله وفaca لما تأمر عليه آباؤه وأضمروه.

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجه وكل ما شاع عن نفائه وبدواته، فإن التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألف في القاهرة لذلك العهد وما تلاه.

وقد وضع كتاب عن «قرة قوش» صوره للناس في صورة الطاغية الذي لا يبالى ما يأمر به من المستحيلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلقيقات الرواية، فحسبوها كلها جدًا لا مرية فيه، وتناقلوها وأضافوا إليها، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطئ إلى زمن قريب، وقد كان «قرة قوش» على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلاً في الحزم وأصالة الرأي وحسن التدبير.

وعند ابن خلدون أن الاحتكاك ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية، وأنه كان مضطرباً في الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة، وأما ما يروى عنه من الكفر.. فغير صحيح ولا ي قوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته، وأما مذهبـه في الرافضة فمعروف، ولقد كان مضطرباً فيـه، ومع ذلك فـكان يـأذن لأـهل السـنة من المـصريـن فيـ صـلاة التـراوـيـح ثم يـنهـي عنـهاـ.

على أن الأقاويل عنـ الحـاـكمـ صـحتـ أوـ لمـ تـصـحـ إنـماـ تـرـوـيـ عـنـهـ وـيـعـلـمـ روـاتـهـ أـنـهـ يـتـكـلـمـونـ عـنـ رـجـلـ مـخـالـطـ فـيـ عـقـلـهـ لـاـ يـعـولـ لـهـ عـلـىـ سـرـ أوـ عـلـانـيـةـ.

(١) تجديف: جدف: كفر بالنعيم، واستقل عطاء الله.

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته إلى الدعوة الفاطمية في صميمها على حسب ما انتهينا إليه من الشواهد النفسية والتاريخية.

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم في التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبًا ينكره علماء الدين من السنّيين والشيعيين.

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة.

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول في دور التأسيس أو في دور الانحلال.

ليس شيء من ذلك بعيداً ولا موجباً لاستبعاده نظراً إلى أحكام العقل أو شواهد التاريخ..

ولكن الذي نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعي النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين الناس من المعطلين على إنشاء دولة لهم الدين الإسلامي والدولة الإسلامية معه، وأن يشمل هذا التواطؤ أقواماً في المغرب والشرق ويذوم من قرن إلى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل.

هذا هو بعيد عقلاً والبعيد في دعوى المدعين الذين لم يستندوه قط بدليل يقرب إلى العقل ذلك الرعم بعيد.

أما ماعدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية، أو شؤون الدعوة العلوية في جملتها فقد سار في التاريخ مطرداً على النهج الذي ينبغي أن يسير عليه. إن الإيمان بالإمامية واطلاع الإمام على الأسرار التي تخفي على غيره أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية في نشأتها التاريخية.

فإن المؤمن بحق على وأبنائه في الإمامة يسأل نفسه: لم لا ينصره الله على أدعية الإمامة والخلافة؟

إنه يؤمن بالله وقدرته وقدرته، فلا جواب لذلك السؤال عنده إلا أنها حكمة يعلمها الله، وإن الإمامة العلوية منذورة لزمان غير هذا الزمان، وإن الإمام الحق يعلم زمانه أو ينبغي أن يعلمه بإلهام من الله.

وقد آمن شيعة على بهذا وأمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب، وكلما تباعدت المسافة بين إمامية الواقع وإمامية الحق تباعدت معها المسافة بين إمامية الظاهر وإمامية الباطن. ثم جاء الزمان الذي أصبحت فيه إمامية الباطن مستورة حتماً فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهوناً بما يتعلم الطالب من الإمام المستور ومن دعاته الذين يخلصون إليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله وإشاراته، ولابد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم..

وإذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد في قيام دولته على الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الإمام المستور الذي لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء؟

إنه لن يعتمد على شيء غير الطاعة والثقة التي لا تتزعزع، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل في شئون إمامته، ويؤمن بهلاك روحه إن خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة، ونقض العهود وحنث باليمين.

كل هذا بديه ولا حاجة به إلى رصف أوراق أو رص أسانيد؛ لأنه لن يكون إلا هكذا حيثما كان، وقد كان.

ولا ننسى أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومربيوهم: يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسر الذي يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله.

ومن التوفيقات التي نسميها بتوفيقات «الموقف» أن الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الإمامية على الجملة تتلاقى هنا - بحكم الموقف الواحد - في كثير من الأمور.

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى في جانب واحد. وإن كانت متعددة المطالب والموضوعات.

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هذه الدراسات ويعنونها على درجات من المنع تتفاوت في العنف والصرامة.

فكان «الموقف الواحد» يجمع بين أصحاب الدراسات المستوره أو الممنوعة التي لا يرتاح إليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم.

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس مت Shi'ah بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم. فكان الكندي والفارابي وابن سينا من الشيعة، وكان إخوان الصفاء كذلك من الشيعة. ومن كان من الفلاسفة سنيا كالفارز الرازي فمذهبة الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهب الإسماعيليين وأئمة الفاطميين؛ إذ كان يرى أن الإيمان بتنوع الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعدى لا يوافق التوحيد..

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيوض الإلهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمى فى حقيقته إلى الحكيم أفلوطين.

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس بمذهب الإسماعيلية.

ونستخلصه من رسائل إخوان الصفا وهم من القائلين بمذهب الفيوض الذى كان يقول به أفلوطين.

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب؛ لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى، ولا يزال يتعرض له فى العصر الحديث.

وعلى نقىض ما قيل عن الإباحة فى مذهب الإسماعيليين يمتاز مذهب الفيوض الإلهى بالمبالغة فى التطهير والإعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشئ من الأشياء غير معرفة الحقيقة الإلهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود..

وقد نبه إخوان الصفاء في غير موضع من رسائلهم إلى وجوب التطهير على الحكيم الخالص للحكمة في حياته الخاصة وال العامة، وقالوا غير مرّة: إن الاستسلام لشهوات البدن يقطع الإنسان عن آخرته ومعاده، ومن ذلك قولهم في رسالة الجسمانيات والطبيعيات: «اعلم أن الاستغراق في الشهوات في هذه الدنيا ينسى الإنسان أمر الآخرة ويشككه ويبيئسه منها، كما قال قائلهم في هذا المعنى:

هـى الدـنـيـا وـقـد وـعـدـوا بـأـخـرـى
وـتـسـوـيـفـ الـظـنـنـونـ مـنـ السـوـامـ
وـقـيـلـ أـيـضـاـ فـىـ هـذـاـ الـمعـنـىـ شـعـرـاـ:
خـذـواـ يـنـصـيـبـ مـنـ نـعـيمـ وـلـذـةـ
وـكـلـ وـاـنـ طـالـ المـدىـ يـتـصـرـمـ
وـقـالـ آخـرـ وـقـدـ كـانـ سـاـهـيـاـ عـنـ أـمـرـ الـآـخـرـةـ
مـاـ جـاءـنـاـ أـحـدـ يـخـبـرـ إـنـهـ
فـيـ جـنـةـ مـذـمـاتـ أـوـ فـيـ نـارـ

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التي وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم إليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة، ويأمرونهم به من الزهد في الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتهم وعاجل حلاوتها».

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى أنه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع إلى عالم الروح، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره فى العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه في معهده ويعيش على مثاله.

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها في رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهي كما يلى:

«.. إنه يتجاوز - أرسطو - أشواطاً بعيدة في التنزيه والتجريد، فيرى أن الله - أو الأحد - من وراء الوجود ومن وراء الصفات، لا يُعرف ولا يوصف، ولا يوجد

في مكان ولا يخلو منه مكان، وكماله هو الكمال الذي نفهمه بعض الفهم بمنفي النقص عنه، وهيئات أن نفهمه بإثبات صفة من الصفات، لأننا نستطيع أن نقول إنه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول إنه هكذا يكون..

«وقد يتصل به الإنسان في حالة الكشف والتجلّى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير، فإذا انقضت فقد يثوب الإنسان بعدها إلى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد إلى مقام العقل الذي هو دونه، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول. ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو: إن الله أو «ال الأحد» لا يشغل بغير ذاته، لأنه مستغنٌ بذاته كل الاستغناء. أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدره النفس عن العقل من هذا التأمل، وإن العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وإن كان دونه في مرتبة الوجданية، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التي أبدعت هذه المحسوسات..»

«ومن البديه أن صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئاً منه ينتقل من المعطى إلى الآخذ فينقص بانتقاله، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شيء فيه، ومن هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذي لا يعتريه نقص بحال من الأحوال..»

«والنفس - وهي المرتبة الثالثة في الوجود عند أفلوطين - تتجه إلى العقل فتنسجم معه في مقام التجريد والتنزية، وتتجه إلى الهيولي فتبعد عن التجريد والتنزية، ولهذا تخلق الأجسام وتضفي عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهي في عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة، فهذه المحسوسات هي كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس في عالم المحسوسات، أو هي كأطيات الحال وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان..»

«فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام، وكلها غشاء باطل يزداد بعداً من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر في اتصاله بالهيولي طبقة دون طبقة، فإن العقل دون الأحد، والنفس دون العقل، والمحسوسات دون النفس، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر إلى الهيولي التي لا نفس معها، وهي معدن الشر في العالم، لأنها سلب محض يحتاج أبداً إلى الخلق، وهو الإيجاد أو الإيجاب..»

«وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية، ولها كالنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات. فهي باتجاهها إلى النفس الكلية إلهية صافية، وباتجاهها إلى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية. وليس النفس عند أفلوطين ملزمة للجسد كما يقول أرسطو، بل هي جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان. وهي تصدر من النفس الكلية اضطراراً كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول، مستجيبة لطبيعة الإصدار في ذلك العقل، وللشوق الهيولي الذي يترفع بالهيولي إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات..»

«والشر في العالم هو الهيولي: لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التي لا تلبسها، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولي وقدرها وضروره الملابسة بينها وبين العقل والنفس في دور من أدوارها. وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها، فإن أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة مخلصة، وإن لم تفلح عادت إلى الجسد مرة أخرى ولقيت في كل مرة جزاءها على الذنوب التي اقترفتها في حياتها الجسدية الماضية..»

«ولا حرية للإنسان كما رأيت: لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهيولي، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات، فيترقى من مرتبة الحس إلى مرتبة التأمل إلى مرتبة الكشف، وينتقل من شتات الحس إلى استجماع العقل إلى وحدة الأحد ورضوان الكمال، فتجزئه ضرورة الارتفاع عن ضرورة الانحدار، ولا محل بينها لشيء من الاختيار، وإن قال به أفلوطين في بعض الأحيان...».

هذه خلاصة وجيزة جداً لأصول مذهب الفيوض كما شرحه تلاميذ أفلوطين، نعتمد فيها على المراجع الأوروبية الحديثة التي نقلت مباشرة من اليونانية. وقد نقل هذا المذهب مجملأً في بعض الأوقات ومفصلاً في أوقات أخرى إلى اللغة العربية، ووقع في نقله خطأً إسناد وخطأً تفسير. فنسبة الناقلون فصولاً منه إلى أفلاطون ونسبوا مبادئ منه إلى أرسطو، ولكن المتصوفة الإسلامية وفلاسفة الإسلام في المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الإسلامي وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلي على الخلصاء من العباد والمتأملين، ورفضوا منه على

التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوية الأنفس في هذه الدنيا بردتها إلى الأجساد التي تشقي فيها، أو مكافأتها بردتها إلى الأجساد التي تترقى فيها إلى مرتبة فوق مرتبتها.

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معاً ما يوافقهم في أقوال أفلوطين، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الإمامة الدينية، وإنما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذًا بالأقيسة الفكرية، واستدل ابن سينا على إمكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى في الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضية وصفاء السريرة، وإن نفس الإنسان تتصرف في مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف في مادة الكون بقدرة تستمدتها من علة العلل التي تتصرف في جميع الأشياء.

وطائفة من أصحاب المأرب وجدوا في تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعواهم، ومنهم من كان يدعى أنه ابن الإمام على بالتلسل الروحاني مع اعترافه بأنه من غير نسله في السلالة الجسدية، زاعمًا أن النبوة تحصل بالانتماء إلى الروح كما تحصل بالانتماء إلى الجسد، ولم يكن في هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة إلى هذه الدعوى؛ لأنهم يصححون نسبهم جميعًا إلى الإمام علىٰ بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم..

ولا شك أن العلامة الشهريستاني كان يلخص طرفاً من مذهب أفلوطين كما وصل إلى المشرق حين قال في تلخيصه لكتاب الباطنية عن الصفات: إن الله «لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر، فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة.. وأنه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل، ثم بتوسطه أبدع النفس الذي هو غير تام.. ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النفس إلى الكمال واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة الخ الخ».

فهذا المذهب في الصفات الإلهية يوافق مذهب أفلوطين في جملته، وفحواه بلا إغراق ولا إبهام. إننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم إلا ما يعطينا

إياته، وإننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة إلا ما نقدر عليه بأمر الله، وهكذا في سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه أنه إنكار لعلم الله وقدرته؛ إذ كان أصحاب الفيض الإلهي ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمال الإلهي مرتفعاً تعجز عن إدراكه العقول..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط في فهمه من يهربون بما لا يعرفون، فإن هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو ينافق مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الإنكار، فإن الخلاص من أوهاق^(١) المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى في الأجسام.

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهمما مذهبان متناقضان. فإن القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الإلهية على الموجودات جمِيعاً وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفي تنزيهاً لله «الاحد» عن جميع المحسوسات والمتعددات..

ويسمع السامع أن حكمة الخلق تجلٰ في أنسٍ بعد أنسٍ فيخيل إليه أن اللاحق أفضل من السابق أو أن قيام مشيئة الله في كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء.

هذا الخلط في فهم المذهب قد جنى على الحقيقة في غير طائل، وجر إلى الخطأ في الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذقة والادعاء..

وقد كان ابن هانئ الأندلسي من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهربون^(٢) فيها بما لا يعرفون، ولم تكن حذلقة مقصورة على مذهب الإسماعيلية بل هي طبيعة نشأت معه في موطنها، ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب إشبيلية فأقصاه خوفاً من اتهامه بمشاركته في أضاليله وخزعبلاته، ولما مدح المعز الفاطمي بقصيده الرائية التي قال في مطلعها:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

(١) أوهاق: جمع ورق يفتحتين: حبل يرمي وفيه أنشوطة فتؤخذ به الذابة.

(٢) يهربون: هرف الرجل بصاحب أطري بالمدح إعجاباً به.

لم يكن يريد أن يقول إن المعز أقدر من الله ولا لما قال بعد ذلك:

وكاناماً أنت النبى محمد

وكاناماً أنصارك الأنصار

وإنما أراد أن يتحذق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وأن الله يوصف بالقدرة؛ لأنها يعطيها، وأن مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندهه لإمساء تلك المشيئة، فخلط وخطب واتهم الناس ولهم العذر فيما اتهموه به، ولم تكن به ولا بمدحه حاجة إليه..

إلا أننا إذا صرفا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذقة والمبالغة في الشعر خاصة لم نجد في كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكتابية، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء لم يسمع مثله من إمام كبير كمحب الدين بن عربى في كتب التأویل أو كتب الترسل الصريح، وقد كتب محب الدين إلى فخر الدين الرازى رسالة يقول فيها: «للريوبية سر لو ظهر لبطل النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطل الأحكام، فقوم الإيمان واستقامة الشرع يكتم السرية..» إلى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحادية.. وفوق كل ذى علم عليم..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالإغراب لقال قائله: إن النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها، وإن العلم لازم لأن النبوة لا تصل إلى الناس أجمعين، وإن الأحكام لازمة، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام. ولكن الإغراب في أساليب المتصوفة والحدقة في أساليب من يسمعون ولا يفهون أو من يفهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكبير - كل أولئك يقود إلى الظنون حيث لا موجب للظنون.

وجملة القول: إن الباطنية الفاطمية لولم تقترب بالدعوة إلى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغريها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقوایل ذلك المضطرب، فقد كان كل مذهب في ذلك العصر «باطنية» على نحو من الأحياء، وأوشك أن يتساوى في هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة وأخوان الصفاء من يتذكرون العلم بينهم ويظهرون منه حين ما طاب لهم أن يظهروه.

فالإمام الغزالى - وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة - كان يُؤلف للعامة غير ما يُؤلفه للخاصة. وكان من كتبه ما يضىء به على غير أهله، والإمام ابن عربى المتصوف كان يدين بالسرية ويرى أنها تمام العلم والمعرفة، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضاً ويتهم بعضهم بعضاً بالكفر والمرور من الدين، وشعارهم جميعاً:

خل جنبي لك لسلام
وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إلا أن يكون مندوباً لعمل لا حيلة له فيه أو متجرداً لرسالة يهون فيها عنده أن يقول وأن يقال فيه.

ومن المحقق أن الباطنية الفاطمية إليها أضيف الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى سيأتى ذكره فى زمرتها، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدنا من قبل، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقوله منها، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الغية والهجوم على المخاطر، فهوئاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية إلا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحياناً من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوابق الإسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء.

* * *

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة - وهو أمير الجيوش الذى ينسب إليه حى مرجوش والجمالية - وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الأمر على خطة أبيه، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الإسماعيلية، فصادروا الإسماعيليين ونفوا أناساً من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية، وضاق الخليفة الأمر بوزيره ذرعاً فتحدثت إلى ابن عمه فى قتله عند دخوله إليه بقصر الخليفة ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفع على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبار فى رحابه، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله، وإغرائه بمنصب سيد مكافأة له على طاعته، واتفقا على اختيار المأمون

ابن البطائحي لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعا في الوزارة، ولم يجد البطائحي من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسللوا إليها خفية.. وشجعهم على الانتقام منه إغراء البطائحي لهم ووعدهم بالعفو عنهم وإسناد الوظائف إليهم متى آلت إليه وزارة الدولة، ولو كان نظام الفدائين معروفا يومئذ في الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمني المخالف لمذهب الإسماعيلية أن يستبد بالإمام المطاع ولا احتاج الإمام المطاع إلى التفكير في اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة، ولا إلى تدبير تلك المؤامرة التي اعتمد فيها على الوعد والإغراء والاستعانة بذوى المطاعم والتراث^(١)..

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد إلى نظام الفدائين إلا بعد استيلائه - كما سيلى - على قلعة «آلموت» وأضطراره إلى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله، وهو في قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها في ميادين القتال.

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها، وأمعنت في التخفي أو في «الباطنية» الواقعية حين أمعنت في الهجوم على خصومها وأمعن خصومها في الهجوم عليها.

* * *

أما قبل دخول ابن الصباح في زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعوة وأتباع الدعوة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة في بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة، تسرع إلى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها. ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التي تمالأ عليها «مجوس أو يهود» بيتوا النية على هدم الدين وتخليل المسلمين، بل كان لزاما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم في الخوف من الإسماعيلية، فلو أنهم قالوا لأولئك الرعايا إن الإسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمان لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة في حربهم والدلالة على مكانتهم؛ إذ كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم في أيدي أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وإن استحقوه بحسبهم، وأن أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء

(١) الترات: جمع ترة، وهي الثأر

على العباسين كما كانوا دخلاء على الفاطميين، فإن لم يكن خطر الإسماعيلية خطراً على الدين وعلى المسلمين جميعاً فهو خطر لا يهم الناس في كثير ولا قليل، ما دام مقصوراً على أصحاب العروش والدسوت^(١).

ولهذا راجت خرافة النسب إلى المجروس واليهود، وهي خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية، وكل ما ثبتت نسبته إلى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التي يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين، بل يختلف عليها الشيعيون الإماميون أنفسهم بين القاتلين بإمامية موسى والقاتلين بإمامية إسماعيل من أبناء جعفر الصادق، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الإسلام كله وتضليل المسلمين أجمعين..

* * *

ومحصل القول في المذهب الإسماعيلي من الوجهة الفلسفية أنه هو مذهب الفيض الإلهي كما اعتقده المتصوفة المسلمين من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية، يضاف إليه القول بعصمة الإمام وأنه وحده القادر على التأويل الصحيح والإحاطة ببواطن التنزيل، وينبغي أن نذكر هنا أن القول بالعصمة الواجبة لكل إمام كان مذهبًا من مذاهب الفلسفة في حكومة المدينة الفاضلة، فإن الفيلسوف الفارابي الذي كان يلقب بالمعلم الثاني قد طلب لإمام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة، ولعله لهذا كان قريباً من الشيعة محبًا للمتشيعين.

وقد كان القول بعصمة الأنمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الإمام على وأبنائه الأكرمين، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين، فاستنكره عقلاً وهم وحكماً وهم، واستنكره أدباءً من لا ينكره اعتقاداً ولا يرى الخلافة لأحد غير الإمام على وبنيه، ولا عذر من المسيبة الباطلة على كل حال، ولكن الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بلعن على على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأنمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

(١) الدسوت: جمع دست، وهو المجلس وصدر البيت.

حسن بن الصبّاح

أشرنا في الفصل السابق إلى التغير الذي طرأ على نظام الدعوة الإسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصبّاح في زمرتها، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التي رويت عن ابن الصبّاح أن الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التي لا تتصدى لدعوة من الدعوات إلا أضافت إليها شيئاً من عندها وطبعتها بطبعها، وأنه لم يكن من أولئك الذين يتعلّقون بدولاب كبير يديرون إلى وجهته، بل كان من الذين يديرون الدولاب إلى وجهتهم حين يتعلّقون به، ولا يدفعهم إلى التعلّق به إلا أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولاباً مستقلاً يتعلّق به الآخرون.

وأتفق الأخبار الصادقة والكاذبة التي رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء، وهي الجنون بالسيطرة والغلبة، وننعدم أن نسمّيها الجنون بالسيطرة ولا نسمّيها حباً للسيطرة ولا رغبة فيها؛ لأنّه كان مغلوباً لدفعه نفسه أو كان أول من غلّبته تلك النزعة فمضى معها مسوقاً لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها.

والسيطرة محبوبة لكل إنسان، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة؛ لأنّه لا يطيق العيش بغيرها، وبين من يطلبها؛ لأنّه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والإذعان للمسيطرين.

ذلك مضطّر إلى طلب السيطرة، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها، وقد يفضل الاستغناء عنها إذا جسمه الطلب فوق ما يطيق..

وكان الرجل داهياً ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يُستره مطامعه ولا يثير المخاوف فيمن حوله.

أو لعله كان داهياً عظيم الدهاء، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه إليها كانا أعظم من دهائه. فانكشفت غايتها على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون.

ومما لا ريب فيه أن الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافات من الخرافات التي كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة إليها، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبراً واحداً يدل على أنه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق، ولا سيما إذا كان التصديق هو طريقه إلى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظارء. فمن مألف النقوس – أو من مألف هذه النقوس خاصة – أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز إيمانها بمطمعها، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض طبعه على اليقين وتجميل العيوب: لأنها أريح له وأعون له على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيوب.

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثاله دون غيرها هي التي تفسر لنا أ عملاً شتى يبدو فيها خادعاً مخدوعاً فى وقت واحد، فهو حصيف لا شك فى حصافته، ولكن كيف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس إليه ومنهم ولده أو ولداته؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف، وفيما هو أسف منه، إذا كان مغلوباً على أمره مضطراً إلى توسيع دفعته بعقيدة تجملها فى نظره وتلبسها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هواة فيه.

* * *

أما ابن حسن بن الصباح كان مغلوباً على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعي إلى السلطان، فإنه ما اتصل بأحد قط إلا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وفطنته، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وفطنته لما تكشف منه دفعه الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان.

سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى أن تلاميذه جمیعاً يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة، وكان ابن الصباح شيعياً ومدرسة الشيخ الموفق معهد السنة فى نيسابور، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعليم فيها على أمل فى الجاه والسلطان.

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب «جامع التواريغ».. وفي روايته عن صباح يقول: إن سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك أنه كان يتتلمن معه في مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعاونة إذا وصل أحدهما إلى منصب من مناصب الرئاسة، وأن ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيره بين ولاية الرى وولاية أصفهان، وكان ابن الصباح على الهمة فلم يقنع بإحدى هاتين الولائيتين، فاستبقاه نظام الملك في الديوان عسى أن يترقى فيه إلى مكانة أكبر من مكانة الولاية..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة، ولكنها على كل حال يصح منها شيء واحد: وهو علم المؤرخين للرجل - من محبيه فضلاً عن مبغضيه - أنه كان بعيد المطامع منذ صباح..

وحدث، وهو في الديوان أنه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعده الملك بإنجازه قبل أن ينجزه الوزير، فاحتال هذا على إحباط سعيه وأوصد عليه الباب الذي أراد أن يندفع منه إلى منصبه فوق كتفيه.

وقيل في تعليل سفره إلى مصر للقاء الخليفة الفاطمي: إنه استوعب كل ما تعلم من الدعوة فاستصغره إلى جانب علمه بأسرار الدعوة، فأراد المزيد من العلم بالشخصوص إلى دار الحكمة في القاهرة، لعله يستوفى هناك علوم الإسماعيليين التي غابت عن دعوة العراق.

ومن الواضح أن الشخصوص إلى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذي لا تصرف عنه همة طامع في مناصب الدولة، فليس له مطعم في بغداد وليس له بين السلاجقين مقام محمود، ولم يبق له إلا أمل واحد لا منصرف عنه، وهو بلوغ المنصب المرموق في عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة.

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكيمة^(١) كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الإمارة والملك لو تمهد إليهما السبيل، ومن ثم زوج بنته للأمير المستعلى، ابن الخليفة، وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلى لولاية عهده، أملاً في الملك إن استطاعه لنفسه أو في توطيد الملك لذريته من بعده.

(١) الشكيمة: الحديدية المعترضة في فم الفرس . وقوة القلب.

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الإشارة إليه، وذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصالحته ومداورته بعد وصوله إلى القاهرة، فاختار نزاراً لولاية العهد واحتلال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة، واستمد من أساس المذهب الإسماعيلي كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه، فزعم أنه مثل بين يدى الخليفة المستنصر فوكل إليه الخليفة أن يدعو إليه وإلى ولى عهده بين الأمم الإسلامية. قال: «فسألته ومن ولى العهد؟ فأشار إلى نزار..».

تلك قصة تشبه قصة الولاية التي صارت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه موسى، فإن الإسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد: لأن الولاية بأمر الله والله يتنزعه عن البداء..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لزار أقام لها أساساً كالأساس الذي قامت عليه الدعوة الإسماعيلية من مبدئها، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين أن الخليفة لم يدعه إلى لقائه، بل أنزله منزل الكرامة في دار الضيافة، ثم أبقاءه على أمل يتربّد بين التقرير والإقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر، ولما يصدق بالنجاة، وراح بعد الإفلات من الخطر ينشئ له دعوة جديدة في المذهب الإسماعيلي، وهي الدعوة إلى إمامية نزار.

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة، ويبدو أن حواجز النفس الغلاية كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطعم الذى ينazuه ولا يعلم المخرج إليه، فقال يوما لأحد أصدقائه فى أصفهان: لو أن معى صديقين أرکن إليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم.. فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيوفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك فى عقله فتركه ومضى لسبيله.

والظاهر من مساعيه وحركته فى هذا التطواف أنه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الإسماعيلية عبد الملك بن عطاش، وكان ابن عطاش قد ولاده

الوکالة عنه ثم زین له السفر إلى القاهرة وأطلعه قبل سفره إليها على أسماء بعض الدعاة المستترین الذين يلقاهم في طريقه، ولكنه يعرف من أستاذه مكانن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التي تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤمنين عليها، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه إليه، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبأة فأطلعه عليها..

وواضح أن تجارب الحسن في رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أیأسه من الوثبة إلى السلطان من طريق الولاية، ولكنها لم تيئسه من الوثبة إلى السلطان حيث كان لاستقرار هواه في طبعه، فطمحت به همته إلى معلم من المعاقل في أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد إليه فيه يد ملك أو خليفة. وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الدیلم، فخرج إليها مع رهط من صحبه وأتباعه، وقيل إنه تلقى من مصر في هذه الأثناء ولدًا لزار بايده بالإمامية وعمل باسمه ودعا إليه، حتى انتهى به المطاف إلى قلعة يقيم فيها زعيم من العلوبيين، فاستضافه، فأنزله على الربح والسعفة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبة ويجمع الأنصار حوله، ثم أحکم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها. وساعدته على انتزاعها أنه خيل إلى أهل الأقليم أن مجموعة حروفها بحسب الجمل توافق تلك السنة الهجرية: سنة ثلاثة وثمانين وأربعين (٤٨٣) وهي مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التي تتالف منها كلمة الهاشمت، وأتم الحيلة في أذهان القوم أنه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (إله) بضم اللام بمعنى النسر في الفارسية و (أموهث)^(١) بمعنى المعلوم أو المعلم، إيماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة، والدين في مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الإمام في كل زمان!

* * *

(١) ينطّق اسم القلعة «آلامواه» أو الموت بفتح اللام.

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة العجيبة التي ترجى (١) الأحاديث عنها بين الناس فيصدقونها: لأنهم يحبون الاستماع إلى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة..

من هذه الأعاجيب أن الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره في نشر دعوته، وأنه توسل به لإقناع أتباعه بروية الجنة عياناً: لأنه كان يدبر عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم إلى حديقة عمرت بمحالس الطرف التي يتغنى فيها القيان وتتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم في غيبة الخدر ويوقع في وهمهم ساعة يستيقظون أنه قد نقلهم إلى جنة الفردوس وأنه قادر على مرجعهم إليها حيث يشاء، وأنهم إذا ماتوا في طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم إلى السماء.

قالوا: وإن هذا الإقناع أو هذا «الإيمان العيانى» يفسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيته وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين، وإن كلمة «أساسين» Assassin التي أطلقت في الغرب على قتلة الملوك والعلماء ترجع إلى كلمة الحشاشين أو الحسينيين نسبة إلى الحسن بن الصباح، وقالوا: إن الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لموالاه أن يشير إليه الشيخ بإلقاء نفسه من حلق فيلقى بنفسه ولا يتردد، وإن أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقطة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم، وأنه يفعل فعلته ويعتمد أن يفعلها جهراً ولا يجتهد في الهرب من مكانها، وإن أمهاه هؤلاء الفدائين كن يزغرن إذا سمعن خبر الفداء وبيكين إذا عاد الأبناء إليهن ولم يفلحوا في اغتيال أولئك الأعداء..

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه إلى عهد الرحالة البرتغالي، «ماركوبولو» الذي ساح في المشرق في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد، ولا يزال هذا التفسير الخرافي مقبولاً في القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء..

(١) ترجى: زوجي الرجل الشيء وأزواجه دفعه برفق. وفلان حاجته سهل تحصيلها.

ونحن نستبعد جداً أن يكون للجنة المزعومة أصل في قلعة حسن بن الصباح، فان التكذيب أرجح من التصديق في كل خيط من الخيوط التي نسجت منها القصة ذلك النسج الواهى المربيب. إن الحسن بن الصباح كان معروفاً بالصلادة والشدة على نفسه وعلى أتباعه، وكان يتنسك ويتقشف رياضية أو رداء أمام أتباعه وتلاميذه، ولم يكن من اليسير في تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمناً طويلاً دون أن يطلع عليه المقربون إن لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعون، وليس من المعروف عن مدخن الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوا في وقت واحد، وأن يتبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس، وليس من المعروف عن الحشيش أنه يهين صاحبه لمواقف الإقدام على المخاطر والإصرار عليها شهوراً أو سنوات.

ومن المحقق أن شيخ الجبل لم يطلع أحداً على سره، وأن أحداً من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه، فهل من العسير أن يتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذي نشأت فيه وسررت منه إلى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى؟

* * *

إن روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المغاربة، وقد كان الصليبيون في حاجة إلى تأويل شجاعة المسلمين، وهم في عرفهم قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح، فخطر لهم وقالوا وكرروا إنهم يستميتون في الجهاد؛ لأنهم موعدون بالجنة التي تجري تحتها الأنهر وترقص فيها الحور الحسان، إذا استحبوا الشهادة في سبيل الله.

واستغراب الشجاعة من الفدائين هو الذي أحوجهم إلى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب، وقد كان ماركوبولو في روايته يقول: إن الفدائين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبي عليه السلام، وكأنه يقول: إنهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون، فهم في شجاعتهم مخدوعون.

إن القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتم. فلم يتخيلاً لذلك سبباً غير الجنة الموعودة، وعرفوا الحشيش، فالتمسوا فيه سر الجنة التي ترى في هذه الدنيا رأى العيان. وقد جاء ذكر الحشيش في كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضهم أن أناساً من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوقي جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الإسماعيليين، أما جنة «الموت» المزعومة فهى من مخترعات الغرب لا نعلم أنها وردت في كلام مؤرخ إسلامى قديم ولا أن أحداً من مؤرخى الغرب أسندها إلى مصدر من المصادر الإسلامية.. ولو كان لها مصدر من المشرق الإسلامي ل كانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوروبيين..

وأول دلائل البطلان في هذه الخرافة أن وجه الغرابة الذي دعاهم إلى اختراعها غير غريب، فإن النخوة الدينية كانت أقرب شيء إلى أتباع الأئمة في ذلك الزمن، ولا تصلح رؤية الجنة عياناً لتفسير تلك النخوة في عجائب الفناء فضلاً عن الفتياً المجردين للداء. فإذا كان أولئك الفتياً يستهينون بالموت؛ لأنهم شهدوا الجنة عياناً، فالعجب لأمهاتهم اللائي كن يفرحن بفقدنهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملکن جاشهن بغير تلك الآية التي رأها أبناؤهن رأى العيان؟!

* * *

لقد كان الأمل في ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان في ذلك العصر من المؤمنين بالمهديّة، وكانت فتن العصر أشبه شيء بفتن آخر الزمان أو بأشراط الزمن الذي يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وينجو بأتباعه ومصدقه إلى حظيرة الخلد والسلام، وكان شيخ الجبل يتخير لقربية الفدائين فتياً أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم، ثم يأخذون في تدريبيهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال في تلك الأطراف التي نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والإيمان.

وكان الإيمان بالدعوة العلوية قد شاع في تلك الأطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم في بغداد؛ وكانت لشيخ

الجبل إرادة من حديد تتسلط على أجناده تسلط «المنوم المغناطيسي» على المدربين عنده على التنميم، فلم يكن في طاعة هؤلاء وإندامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة إلى رؤية الجنة بالعين، وتتأتى الحروب الصليبية فتلعب ما فتر من النخوة التي أذكىها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلطانين.. فلا يحتاج الفتى المدخر للاستشهاد إلى دافع أو حافز، بل لعله يحتاج إلى الوازع والرقيب..

والمؤرخون الأوروبيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم في الجماعات السرية كثيرون، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه، ومنهم من يسرع إلى الاتهام ومنهم من يتربى فيه، فمن الذين أحسنوا التفسير إيفانون الروسي صاحب كتاب «مؤسس الإسماعيلية المزعوم» The Alleged Founder of Ismailism وهو من يصحيحون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل «الأساتذة المربيين» الذين يختارون لتعليم النساء وتنقيفهم في العلوم وفقه الدين، وقد عم الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخاص بالذكر أئمة «الموت» من «المهدي» حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان» وسائر هؤلاء الدعاة..

فأما إن حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار، فهل يصدق القول عليه أنه هو يخدع ولا ينخدع وأنه هو يسوق ولا يساق؟

* * *

الراجح عندنا أن هذا «المهدي» لم يكن خلوا من الإيمان بدعوته على وجه من الوجه، وأن عمله في الدعوة عمل جاد غير هايل وصامد غير متعدد، ولا داعي للشك في إيمانه بعمله وإن كان هناك شك كبير في إيمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه.

وما بالنا نتخيله خلوا من الإيمان منصرفًا كل الانصراف إلى التضليل والخداع؟ أليس من دواعي الإيمان أن يكون الإنسان مدفوعا إلى عمله غير قادر على تركه؟ أليس من دواعي الإيمان أن يكون اعتقاد الإنسان في عمله خيراً من اعتقاده في أعمال الآخرين؟ أليس من دواعي الإيمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من عمله حجة لتلك الرسالة؟

إن «التنويم الذاتي» معروف متواتر، وأنه لأقوى ما يكون حين تندفع إليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها، وذريعة لها عذر من أحوال الزمن ودعاعيه، وربما بدأت عقيدة ابن الصباح في رسالته سلبية قبل أن ترسخ في طويته بالإقناع الموجب واضحًا أو وسطًا بين الوضوح والغموض، وتعنى بالرسالة السلبية أنه أمن إيماناً لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلالة ذوى السلطان فيه، وأنه مهما يفعل في حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب.

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعه فطرية إلى السيادة والسلطان، فماذا يصنع بهذه الدفعة إن لم يعمل بها عملاً قوياً متصل العزيمة والثبات؟ إما أن يستكين إلى سيادة غيره والموت أحب إلى أصحاب هذه النفوس الغالية المغلوبة من استكانة الخضوع، وإما أن يمضي قدماً ولا بد له من مسوغ وبرهان - وليس أسرع إلى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجوان من الغرق في لعج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان.

وقد قال داعي الدعاء في ذلك العصر: إن الناس كانوا بين رجلين، رجل لو قيل له: إن فيلاً طار أو حملًا باض لما قابله إلا بالقبول والتصديق «أو منتحل للعقل يقول: إنه حجة الله تعالى على عباده، مبطل لجميع ما الناس فيه، مستخف بأوضاع الشرائع معترف بذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاماً على رءوس المجرمين المجازفين...».

وهذه عقيدة قوم لا دفعة في طبائعهم إلى طلب السيادة والسلطان، وليس في طويتهم ما يثيرهم إلى الحركة إذا أثروا السكون، فإذا كانت هذه العقيدة في طوية رجل لا يهدا ولا يستكين ولا يرى في نفسه إلا أنه أهل للقيادة والإمامية، وأن الذين حوله أهل للقمع والنكال، فمن الميسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه، هي أصلح مما هم فيه، وأصلح مما يحققونه على أيدي سواه.

وقد سوغر أفلاطون في جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين الناشئين، وسوغر فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر إلى المربيين بالرموز والإشارات، وأباها ذلك وليس واحد منها مأخوذاً بدفعه السيادة، وليس في زمانها دعوة سرية عامة كالدعوة التي لفت حسن بن الصباح من رأسه إلى قدميه.. فلم لا يسوي هذا المذهب في قيادة الدهماء لحسن بن الصباح؟ وهل من بعيد أنه اطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع على أفلوطين؟ إن القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصلب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته إلى عنابة الله يتوجه به حيث أراد.

* * *

إن المؤمنين الخالصين للإيمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بني آدم وحواء، وما من أحد آمن بعقيدة إلا عرف في بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستألهما اليقين.

وتسعون في كل مائة، إن لم نقل أكثر من ذلك، يؤمنون بالعقيدة إيمان الوقاية أو إيمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداء، وإذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد، فأحرى بهذه القوة أن تقنع وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه، وعلى أصحابه مستحقاً منهم الطاعة والتسليم..

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الإيمان بعمله فيما نرى، ولم يكن عسيراً عليه أن يركن إلى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالإلهام حيناً بعد حين، فما عاش الرجل بقية حياته غائباً عن صوابه ولا مالكاً لكل وعيه، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع والمخدوع..

استولى الحسن على قلعة «الموت» في سنة ٤٨٣ هجرية ومات في سنة ٥١٨ هجرية، فظل مالكاً لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمساً وثلاثين سنة، لعله كان خلالها أقوى رجل في الديار الإسلامية من مراكش إلى تخوم الصين.

ولى عهده، وتسمى بالمهدي وانتحل البنوة الروحية للانتساب إلى الإمام واستعلن بتعدد المراجع في المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم «نزار».

ومات «المستنصر» الخليفة الفاطمي سنة ٤٨٧ للهجرة فساعد ذلك الإمام إسماعيل على انتحال المرجع الذي يروقه أن يدعوه، فهو حجة ومهدى وإمام كما يشاء..

* * *

وقد اعتمد في توطيد سلطانه على ثلاث: الحيلة، والغيلة، والفتنة الدخيلة. فمن الحيلة أن السلطان السلاجوقى ملكشاه سير إليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بستين، ولم يستكثر من الجنд كما أوصاه وزير نظام الملك استخفافاً بشأن القلعة وحاميتها، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحاواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من المتعاع فسیرت على مرأى من الجيش المحاصر، فما وقعت أيديهم على زقاق^(١) الخمر حتى أفرغوها في أجوفهم وانطلقو يقصفون^(٢) ويهزجون، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلاً ونهباً وتشريداً من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال.

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاغ إلى نصيحة وزيره في هذه المرة، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة، وأرسل إلى الوزير فتى من فتيانه الفدائين فقتله فعاد الجيش الذي سيره الوزير إلى حيث استدعاه ملكشاه، لحاجته إليه في اتفاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول.

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث.. فيموت ملكشاه ويُزعم الأتباع والأشياع أنها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحداً بعد واحد، ويتباهي الرجل إلى موقع الفرص فلا تفوته منها فائمة. فلما نشببت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه، فيسلط على الجيش المنتصر

(١) زقاق الخمر: جمع زق (بكسر الزاي): الجلد يتخذ للشراب وغيره.

(٢) يقصفون: قصف القوم: أقاموا في الأكل والشرب واللهو.

سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة. ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المحاربين في شك من هو معهم ومن هو عليهم، وقد يشيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير أنه من الإسماعيليين «الصباحيين» المستتررين، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب إليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه.

فلما آل العرش إلى السلطان سنجر بن ملکشاه، وكان من أقوى الملوك وأغناهم في عصره، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح. وقيل في أسباب المصالحة: إنه كان من أهمها شك السلطان في حاشيته وقواده وأجناده، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس إليه وهو لا يعلم، فتعاقد مع ابن الصباح على المسألة وترك له جباهية الضرائب والإتاوات^(١) في إقليمه. ويروى أنه وجد في طريقه إلى حصار «الموت» خنجرًا مغروساً في فراشه مكتوبًا عليه إن الذي غرسه هنا قادر على أن يغمده في صدرك، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر من شيخ الجبل، فأثار المسألة على القتال.

* * *

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشاركة ولا هوادة، فانقسمت الدعوة الإسماعيلية على نفسها وأصبح لها في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعاً: أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو إلى نزار ويدعى المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر الآخر من الإسماعيليين، والثاني يدعو إلى المستعلى وأبنائه. ويفقير منها اليوم طائفة الإسماعيليين المعروفين باسم البهرة، يقولون: إن المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة «الأمر» الفاطمى وإنه يحضر موسم الحج في كل عام، فمن رأى الحجاج جمیعاً في موسم من مواسم الحج فقد رأه ..

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسيين هي حياة الرجل في السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة الموت. إنه لم يك يفارقها بعد دخولها، ولم تكن له أسرة فيها

(١) الإتاوات: الاتاوة: المال الذي يؤخذ على الأرض الخاجية.

غير امرأته وولديه، وهذا الزعيم «الباطني» الذي قيل عن مذهبة: إنه ذريعة إلى استباحة المحرمات والتهاون على اللذات قد اتفق الكاتيون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطابق، فضلاً عن الحرام، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنته أنه قتله لمخالفته إياه في شرب الخمر على الخصوص، ولم يقتل ولداً واحداً بل قتل ولديه الاثنين وهو في شيخوخة لا مطعم له بعدها في الذرية، وهذه هي حيرة أخرى من الحيرات لا تحسن في مسلك هذا الإنسان العجيب أكله، وفي مسلكه قبيل وفاته على الخصوص.

هل هو مجنون مطبق الجنون؟ إن المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه في شباب ولا شيخوخة، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتألفها غرابة أعضل وأدهى، وتلك هي قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاماً بعد عام، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه واعوانه ومنهم الأذكياء والدهاء وفيهم الشجاعة والهمة والإقدام!!

هل له عقيدة يصبر في سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها إراقة الدماء، دماء الأبناء كدماء الأعداء؟

إنه خلق العقيدة النزارية خلقاً فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر في سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح في سبيلها ما استباح.

والذي يبطل الحيرة في اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الإنسان العجيب.

ونبدأ فنقول إننا ينبغي أن تستغرب من حسن بن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره، ولو كانوا معظم الناس.

فالتفريغ في طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوي أو فتور هذا الحنان فيهم، ولكن هل خلا الجنس البشري من أحد يهون عندهم الحنان في جانب النوازع القوية التي لها سلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان؟ هل خلا الجنس البشري من أحد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار فضلاً عن الشهوات الكبار، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات؟

وهل من بعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملّكهم نازعة تطغى
على حنان الأبوة؟

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الإطلاق، بل هو دأب الطامحين من أمثاله إلى
السيطرة، ودأب الذين يهون عليهم شفف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء
في زوايا الإهمال. وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهم قد تأمرا عليه مع بعض
أعوانه المتطلعين إلى مكانه كما جاء في بعض الروايات، وقد يكون أحدهما هو
الذى تأمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالأخر أنه لا يفلح ولا يؤمن على
مصير الدولة بعده. وقد يكون بطشه بابنه في سبيل رسالته هو المسوغ المقبول
 أمام ضميره لإقدامه على البطش بالغرباء في هذا السبيل.

* * *

فإذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة، وكان الظن بغلته حيرة مثلاها، فأنفي
الظنون للحيرة أنه أطاع طبعه في طلب الغلبة على الرغم منه، وأنه اتخذ من
فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها، وأنه راض نفسه على شدائـد
تلك الرسالة لتكون الشدائـد التي يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاؤـعة
طبعه، وأنه كان عرضة لسورة الغضـب ونوبة الفتـك في أزمـات طبعـه ولكنـها
 سورـات^(١) نوبـات دون الجنـون المـطبق في جـمـيع الأـحوالـ، وهذا كـله جـائزـ غيرـ
 مستـغربـ. أما المستـحـيلـ فهو أنه مـصابـ بالـجنـونـ المـطبقـ أو خـادـعـ لاـ عـملـ لهـ ولاـ
 غـواـيةـ منـ وـرـاءـ عـمـلـهـ غـيرـ الـخـدـاعـ وـالـتـضـليلـ، أوـ أنهـ مـغـفـلـ لاـ يـدـرـىـ مـوـضـعـ الـغـفـلـةـ
 منـ سـرـيرـتـهـ، وـهـوـ يـتـسـلـلـ بـالـإـقـنـاعـ إـلـىـ سـرـائـرـ الـمـئـاتـ وـالـأـلـوـفـ، وـمـنـهـ الـأـذـكـيـاءـ
 وـالـأـلـبـاءـ وـالـحـصـفـاءـ..

(١) سورـاتـ: السـورـةـ: الشـدـةـ وـالـثـورـةـ وـالـسـطـوـةـ.

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل في نقاوتها المعلومة هي ألم السير للتعریف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الإسماعيلية على التخصيص، فهذه السرية كانت تشتد وتتراءى تبعاً للعمل الذي ينوطه الإمام بدعاته، لا تبعاً للفكرة أو للعقيدة التي يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى.

كانت السرية تشتد كلما خشي دعوة الإمام في بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبليل الأفكار فيما حولهم. وكانت تتراءى حتى لا سرية على الإطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور موئية لهم ولسياستهم . وقد يعقدون المجالس ويحاضرون في الأندية العامة لإعلان آرائهم وإقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام في ديارهم.

* * *

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة في الإمام حين يكون تعظيم الإمام وتقديسه لازم لإقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأحوال في غير إشراق على حياته أو حذر من عاقبة أمر، ففي هذه الحالة يتصرف الإمام بالقداسة التي توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة في هذه الدنيا أو في الدار الآخرة. وكثيراً ما يستغنى الإمام عن المغالاة بقداسته في الأزمنة العصيبة التي تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود وتتوالى العلامات والأشراط التي تؤذن بظهور المهدى وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه. فإذا شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالإمام إلى عقائد المبالغة والمغالاة في أمره، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأتى بدعوته جند مصدقون مطيعون.

وإذا أردنا التوسيع الذي يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جمیعاً ولا يخص الإسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الإمامة هو محور

كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة. فكل ما عزز ضرورة الإمام الحى فهو من عقائد الشيعة. وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبى الرأى إلى محور الخلاف كله، فأيهما كان أقرب إلى ضرورة الإمام الحى فهو من مذهب الشيعة، بغير حاجة إلى البحث الطويل والاستقصاء البعيد.

* * *

وقد لخص الغزالى هذا الفارق فى كتاب المنقد من الضلال فقال: «الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة إلى معلم وأنه لابد أن يكون المعلم معصوماً، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد ﷺ: فإذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب، فإذا قالوا: معلمنا قد علم الدعوة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل، فنقول: ومعلمنا قد علم الدعوة وبثهم وأكمل التعليم؛ إذ قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾. وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته. يبقى قولهم: كيف يحكمون فيما لم يسمعوا؟ أفبالنص ولم يسمعوا، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف؟ فنقول: نفعل ما فعله معاذ - رضى الله عنه - لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن؛ إذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه، بل كما يفعله دعاتهم إذا بدوا عن الإمام إلى أقصى الشرق؛ إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الواقع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام، وإلى أن يقطع المسافات ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده؛ إذ لو سافر إلى بلدة الإمام ليعرفه القبلة لغات وقت الصلاة. فإذا أجيزة الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن - ويقال إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران - فكذلك فى جميع المجتهدات...».

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب إلى تعليم الإمام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنين، وجميع

المقربين للإمامية على مذهبهم كالزيديين. وهذا هو الذي يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأي في الإمامة لا عقائد مستورّة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين.

* * *

خذ لذلك مثلاً إعلان بدء الصيام، فإن رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنّيين، ولكن هذا الرأي يغنى عن إعلان الإمام للصيام فلا يأخذ به الإماميون، بل يقولون إن المسلمين كانوا في حياة النبي - عليه السلام - يصومون حين يصوم، فلما أزمع السفر سأله عن موعد الصيام فقال لهم: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، ولم يكلهم إلى الرؤية قبل ذلك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون.

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الإمام دون غيره هو العقيدة التي لا محيّد عنها لمن يقولون بالإمامية، وإنما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن، وإجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد في طاعتها توقفاً على فهمها، فإنها لو كشفت في بعض الأزمنة لحاقَ الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين..

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم، فهي مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها، وقد ترخص بعض الإماميون في أمر العصمة الواجبة للإمام، فأباح بعضهم نقد الإمام كما فعل حسن بن الصباح في نقد الخليفة المستنصر، بل كما فعل داعي دعوة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازي الذي سبقت الإشارة إليه، ولكنهم يقولون إن الإمام يصيب وهو مختار، ويجرى مع الخطأ وهو مكره، ولا سيما في اختياره لولي عهده وصاحب الإمامة من بعده، فإن من اختياره طائعاً فهو الصواب المطاع.

* * *

لقد صحبنا منشئ «الإسماعيلية الجديدة» من عهد بروزه في ميدان الدعوة الفاطمية، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى؛ لأن حياته العامة لا تتوقف على أخباره في أوائل نشأته.. فما مرّ بخبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه

ونحلته، فهو ينتمي إلى اليمن ويذكر من نسبته أنه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصبّاح الحميري، ومنكره دعوه يقولون إنه قروى من خراسان، ومنهم من يقول إن أباه كان يعمل في الصياغة، صناعة الصابّة على شواطئ بحر العجم.

* * *

والثابت أنه مات ولم يظهر له في حياته ولا بعد مماته أحد من ذوي قرابته، وأن دعوته لم تفلح في بلاد اليمن، بل أفلحت فيها دعوة الطيب ابن الأمر التي كانت تناقض الدعوة إلى نزار أمام الحسن المختار، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسي غريب عنه لا تربطه به نسبة، ولعله من أقربائه المستورين إن صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن.

ورويت عن صباح تلك القصة التي جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين: لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فإذا كان ابن الصبّاح والخيام من لداته فقد بلغا إذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببعض سنوات، وفي ذلك موضع للشك غير ضعيف.

وأيا كان الخبر الذي يثبت من أخبار صباح فهو لا يغير شيئاً من ملامح «الشخصية» التي بربها في التاريخ، وهي شخصية المغامر صاحب الدعوة التي انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه.

وهذه بعد شخصية أثبتت في ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث في الدعوة الفاطمية، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التي اقترنـت بالفاطمية في تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول.

* * *

بُنَاء وَهَدَامُون... وَمَهْدُومُون

ينسب قيام الدولة الفاطمية إلى جهود الدعاة الذين انبثوا في المشرق والمغرب وافتتحوا في تبليغ الدعوة سراً وجهراً إلى كل طائفة بالوسيلة التي تلائمها، ويغلو بعض المؤرخين في شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرؤهم أن غير هذه الجهود لم يكن له في إقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال.

ولا شك في براعة الدعوة الفاطمية وقوتها أثراها في التمهيد لقيام الدولة، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعاة كان يسيء إلى القضية ولا يحسن. وأن فريقاً من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضررون قضيتهم. وأن الدعوة لو انصرفت كلها إلى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شيء منها للإساءة والتنفير - لما بلغت غايتها إن لم يكن جو العالم الإسلامي متهيئاً لقبول نظام جديد والإعراض عن نظام قديم. والواقع أن جو العالم الإسلامي قد تهيأ في القرن الثالث لقبول هذا التبديل في نظامه، وكان هذا التهيؤ من شقين: شق ينكر النظام القائم، وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه.

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم، فيربطون بين مشيئة الإنسان ومشيئة الكون كله، ويلوح لهم حين يريدون التغيير أن التغيير كائن ولو لم يريدوه، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه.

وتوجد الكلمة التي تحفظ حين تلفظ، ويسمع الناس «إن الشمس ستشرق من مغربها» فيهمس بها بعضهم إلى بعض، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه.

وقد كان علم النجوم قد استفاض في كل مكان، وليس أكثر من مقارنات الفلك التي يحسب المنجمون أنها علامة الغيب على الغير والأحداث، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائماً بتلك العلامات وهم الذين يرکنون إليها ويتربونها، ولا سيما حين يكون علم النجوم علماً يحبه المجددون ويمارسونه، ويبغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يتربون الخير من ورائه.

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم
ذى الذنب فى زمانه:

أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبراج العليا مرتبة
ما كان من قاباً أو غير منقلب
وخطفوا الأرض من دهباء داهية
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

ولكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث إلى الوجهتين المتقابلتين: وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمرين بها، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم.

قال صاحب زهر المعانى: «وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته، ثم إن الملوك والأضداد أيقنوا بذلك، وإن صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدى فى كنفه: حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره.. وأن يكتنوه بالشمس الطالعة.

وكان المهدى نفسه على علم بمراسيد النجوم، فكان يتفاعل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه، فإذا علموا أن الكون كله يتأنب «لطلع الشمس من المغرب» فقد بلغ التصديق غاية اليقين.

وقد أثر عن حفيid موسى الكاظم - كما جاء في المقرizي - أنه قال في سنة اثنتين وخمسين ومائتين: إن الإمام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة، ونظم الفهرى هذه النبوة فقال:

ألا ياشيعة الحق
ومن هم نصرة الله
فعند السنت والتسع
ذوى الإيمان والبر
على التخويف والزجر
عيين قطع القول في العذر

وظل المتربيصون بالدولة العباسية يقرأون في أرصاد النجوم علامات زوالها إلى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع، فقال أبو طاهر القرمطي:

أغركم منى رجوعى إلى هجر
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ في أرض بابل
وقارنه النجان، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأنى أنا المرهوب في البدو والحضر
أنا الداع للمهدي لا شك أننى
أنا الضيغم الضرغام والحياة الذكر

وقد تقدم أن الناس ظنوا بأبى العلاء المعري أنه من رصدة النجوم، فإذا بلغ بزمان أن يتربى فيه الضرير أرصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار، والبصائر بمسالك الكواكب، أم كانت مسالك الكواكب هي التى شهدت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم إلى الغيب من بصير وضرير.

وفحوى ذلك كله أن السماء والأرض في عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان إلى شيء، وأن الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير.

وجاءت الدعوة الفاطمية إلى قوم متبرمين أو قوم غير مكتربين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد.

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها، ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم، معتقد أن أهل البيت المقربين خير من أهل البيت المولين، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزاً وسفها فليس لهم منها غير الأسماء.

* * *

وكان بطش العباسين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه. فكان مع العباسين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتوه أصحاب العروش في بغداد. ولو لا عامل من عمال بنى العباس في الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل إلى المغرب حيث أقام الدولة. يقول جعفر الحاجب في سيرته: «وصلنا إلى الرملة فنزلنا بها عند عاملها، وكان مأخونا عليه فلم يدر من السرور بروية مولانا المهدى.. كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبل يديه ورجليه».

ثم قال إن النجاب وصل من دمشق إلى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى في داره فانكب الرجل على رجل المهدى يقبلهما ويبكي فطمأنه المهدى قائلا: «طب نفسا وقر عينا، فوالذى نفسى بيده لا وصلوا إلى أبدا، ولنماكن أنا وولدى نواصى^(١) بنى العباس...».

وتبيّن غير مرة أن النجابين الإسماعيليين كانوا أسرع إلى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليميه. واستُخدم الحمام الزاجل في تبليغ الرسائل إلى المهدى وهو في طريقه كما جاء في روایات مختلفة، فإن صحت هذه فهو دليل على ولاع عجيب وإيمان برسالة المهدى على طول طريقه من الشام إلى المغرب، وإن لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال في الشام ومصر والمغرب، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره إلى المغرب الأقصى.

وريما كان ولاع عامل تابع للأمراء أقل في باب العجب من ولاع أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية، لا تعرف لخلفاء بغداد من بنى العباس بغير الدعاء على المنبر في يوم الجمعة، فقد روى عن كافور الإخشيدى أن الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه - وقد سقط منه - فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول: «نعيت إلى نفسي، بعد أن ناولنى ولد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سوطى غاية يتشرف لها...».

(١) نواصى: جمع ناصية، وهي منبت الشعر في مقدمة الرأس.

هذه هي أشرطة الساعة وعلمات الزمان التي وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر، ولو لم تقترب دعوة الدعاة بهذه الأشرطة التي تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من إقامة الدولة ولا تمكنوا من الإقناع وهو أهم أعمال الدعاة.

* * *

ونتابع الأمر إلى غاياته فنقول إن الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خلية أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناء وموظدون من أصحاب السلطان فيها، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم إلى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشى الزمن، وهي بعد التأسيس عرضة لطوارئ الهدم والتوهين..

وقد جرت العادة في كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموظده: مؤسس هو رأس الأسرة وموظده هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهاي قبل أن يبلغ التمام، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناء أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون.

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذًا من هذه القاعدة، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعز لدين الله، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التي تنبغي لبناء الدول وموظدي العهود، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودعواتي الزمن دون أن يتأتى للدولة هذان البانيان لما بُرِزَ لها من الأرض ركن ولا أساس.

اتصف عبيد الله بقوه البنية وجمال السمت والهيبة، كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش، وعرف بالحزم وأصالحة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد، واجتمع له حسن التصريف، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغي أن يكون، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسساً قليلاً للنظراء.

قيل في قوة بنيته «أنه كان بقوة عشرة رجال».

وليس هذه القوة نادرة في أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه جلد الأرض بمصارع الروم الذي جاء إلى دمشق

يتحدى الأقواء في بلاد المسلمين كما تحداهم في بلاده. ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس، فقيل عن يحيى بن عمر الملقب بالشهيد أنه «كان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده».

وليس قوة البنية شرطا في أصحاب العروش، ولكن مؤسس الدولة يحتاج إليها إذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان إلى مكان فجأة وعلى غير استعداد، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة، وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه، فإذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق.

أسعفته هذه البنية الوثيقة في مآزقه وفي أيام سلطانه، وأسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته، فلما كان أسيرا في المغرب الأقصى كان صاحب «سجل ماسة» ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه، وكان يعمل في مغيبه ما لم يكن يجترئ على عمله وهو ناظر إليه.

وقد تمت له المسعفات في مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التي لاتفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة. فلما خرج من الشام إلى مصر هربا من خلفاء بغداد سيرروا الأدلاء إلى كل بلد في الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة من يراه ولا يدل عليه، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء. واتفق أنه صلى الصبح يوما في جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد وضرب بيده على كم الإمام وقال له: «قد حصلت لى عشرة آلاف دينار».

* * *

ولو رجل غيره في مثل ذلك الموقف العصي لساخت به الأرض من الفزع، ولكنه التفت إلى الرجل غير مكتثر وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر: وكيف ذلك؟ قال: لأنك أنت الرجل المطلوب. فضحك المهدى وعاد مع الرجل إلى المسجد وهو يقول له: «عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أننى إذا جمعت بينك وبين

الرجل الذى تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار!..» ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه إلى حلقة قد اجتمع الناس فيه، وأدخله من جانبها وراغ منه.. وأجمع النية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير إلى المغرب.

وفي مسيرة إلى المغرب تعقبه وإلى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه، ولاح عليه أنه يحدّث نفسه بلحاقه إذا ثبت من حقيقته، فما عتم المهدى أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه - وكانت تربيته لابنه كما تقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية - فوقع فى نفس الوالى أن رجلا يعود بعد النجاة فى طلب كلب لا يظن به أنه خائف على حياته وأنه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه: «قبحكم الله. أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى أخذه. فلو كان يطلب ما يقال، أو كان مريباً، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه، ولا كان رجع فى طلب كلب ...».

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب بن سعد فى تارىخه، وأنه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره إلى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبته، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى إلى بغداد.

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة أنه بادر على الأثر إلى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفي مصر واليمن وال العراق وخراسان، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعاً فى يديه أيام استثاره، فتولى الدعوة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم، وتعود هؤلاء الأعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعوة الذين ندبواهم واختارواهم، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة، فإنه خلائق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يُطعم هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه. فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعوة ولم يستثن أكبرهم - داعى اليمن ابن حوش - فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى إلى المغرب واستقدمه إليها بعد التمهيد له وجَّمَ القبائل على عهده، وقد رابه من الشيعى هذا وأخىه

العباس أنهم على اتصال خفى بزعماء القبائل وأنهم يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان فى يديه، ونمى إليه أنهم يأتى من به وببيتان النية مع زعماء القبائل على قتله، فأمر بقتلهم وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فىهم الظنون، فجعل يفرقهم فى المناصب النامية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم، وهو فى الواقع يقصىهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة.

* * *

وأطلق دعاته الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الإسلامية ليبشروا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه، فانطلق رسle إلى بلاد الأمويين بالأندلس وببلاد الأدارسة بالمغرب، ونشط رسle فى مصر واليمن وال العراق وخراسان، وأخذ بيده أزمة الثورات فى كل إقليم من تلك الأقاليم، فاستمehل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وأن الأوان قد آن للجهر بها، ورأى هو بثواب نظره أن ثورة الأطراف قبل فتح مصر، أو قبل المسير إليها، تغير بالثوار، وأن الثورة بعد فتح مصر تتقدمة متوقرة قد تأتى عفوا وقد تتشب دفعه واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية، فلا يعيى الثوار بالخروج عليها فى غير حذر ولا ندم. وقد صرحت قدره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين.

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى أنه كان مقسورة اليد فى حملاته على مصر. كان يوصى بالأناة والتريث حتى يفرغ العمل فى التخذيل وكسب الأنصار... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التى تأتى على غير انتظار فيما يمكث خليفة بغداد ويستحكم الشقاق بين قواه ووزرائه ويغتتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة، وتتوارد الكتب إلى المهدى بالحضور على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر إلى هذه الأحداث من بعيد، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجناد مطمعة للمغييرين عليه والمنتقضين ومن بايعوه على دخل فى أول عهده، فينفذ إلى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار، كالحملة التى عقد لواءها للزعيم البربرى حباشة ثم حمله تبعه الإخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل إلى الإسكندرية.

* * *

أما الخطة التي يبدو أنه كان يؤثرها ويختارها فهي إرجاء الحملة على مصر إلى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشاغباته، ويبتلى فيه المدينة التي أزمع أن يتخذها حصنًا له يحتمى به من المغirين والمنتقضين، وقد شغلته فتن المغرب زمناً وأخرجته أياً ما إخراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعي وأخيه فقمع الفتنة قمعاً عنيفاً لا رحمة فيه، ولم يسكن إلى مقره بالمغرب إلا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالي سنة خمس بعد الثلاثمائة، فقال يومئذ: «لقد أمنت الآن على الفاطميات»..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء في بنائه للمهدية، فانتقى لها موقعاً يحيط به البحر من جهات ثلاثة، وأقام عليها سوراً من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منها ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور، وانتهى جانباً ثالثاً بنى على مقرية من المهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة إحدى قبائل البربر التي توالى، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفاً عن المهدية وعزلًا بين السكان ومرافقهم، وأفضى إلى خاصته بأنه إنما فعل ذلك ليأمن غائلتهم. قال: «إن أموالهم عندى وأهالיהם هناك. فإن أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك، وإن أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك، وبينيت بيني وبينهم سورة وأبواباً فأنَا آمن منهم ليلاً ونهاراً، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً وبين حرمهم نهاراً».

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولي عهده القائم فدخل الإسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم إلى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله؛ لأنَّه كان أضعف من أسطول العباسيين.

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو في وهن الشيخوخة، وقيل إنه مات قبل أن يحكم تدبيرها، ويبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة، مخافة الانتقاض من أدناها للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته.

* * *

مات المهدى فى سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد فى تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين، فكانت مدة حكمه أربعاً وعشرين سنة، ترك الدولة بعدها وقد استقر ببنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التى كانت تنازعه فى المغرب وصقلية من الأغالبة والأدارسة ومن يوازيرهم من الأمويين بالأندلس والعباسيين ببغداد، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكماً أو غير حاكم أنه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يوماً عن سياسة ملكه، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتقام إلى أعداء الدين، بل أعداء الأديان وأنه تواطأ سراً مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والإغراء بالفجور. ولو لم يكن كذلك لما أبقي بعده ملكاً مؤسساً يغالب عوادى الدهر من أول القرن الرابع إلى نهاية القرن السادس، أو يغالبها بآثاره الباقيه إلى اليوم.

* * *

المعز لـ دين الله

واحتاجت الدولة إلى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأولي من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لـ دين الله، وهو الخليفة الذي فتحت مصر وبنى القاهرة في عهده ونقل مقر الملك إليها بعد انتهاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير، وقيل إنها كانت نبوءة من يحسبون الأوقات في مراحل التاريخ بالأربعينات.

تولى الملك بعد المهدى ابنه «القائم بأمر الله» ثم المنصور بأمر الله، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وإن لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده، فعزز القائم الأسطول وأحتل الشواطئ الإيطالية حتى تغير جنوة حماية لبلده من غارة القرصنة، ومات قبل التمكن من صد الخوارج الذين أطعهم فيه موت أبيه، ولو لا انتقامته بالمهدية لدامت الدولة كلها في عشرة أعوام. وارتقي ابنه المنصور إلى العرش فاجتاز الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش في هذه الأثناء وبين صد الإفرنج الذين خيف منهم على شواطئه، فوزع قواه بين هؤلاء وهوؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم. ومات مجهاً في سن (٣٤١ للهجرة) فارتقي العرش ابنه «معد أبو تميم» المعز لـ دين الله الذي كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس.

* * *

قلنا في كتاب «عقبالية خالد»: «إن ولاية أبي عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد: لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح إلى غصن الزيتون مع السيف». وقد كان هذا شأن المعز في المغرب بعد جده.. فإنه كان يحسن المجاملة إلى جانب البأس والصرامة، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصلجان.

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته وال الحرب قائمة والمهدية محصورة، فكان يتلقى دروس الفروسية علماً وعملاً ولما يفرغ من مراجعة الطروس

والأسفار، وتعلم لغات الأمم التي تتصل بالخلافة الفاطمية جمِيعاً، فكان يحسن البربرية والرومية والإيطالية والنوبية، ويتَوَسَّع في علوم العربية، وكان له شعر ونشر يميل فيهما إلى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام في تلك الأيام. ويروى عن أنفته من الجهل أنه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرِفها واعتقد أنها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فإذا بالكلمة من أرذل شتائمها، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها..

ويُوَيْعَ لِه بالخلافة وهو في الرابعة والعشرين، فهُمَّهُ أَوْلَ الْأَمْرَ أَنْ يَسْتَوِّثُقَ مِنْ أَمْنِعِ الْمُعَاقِلِ الَّتِي يَعْتَصِمُ بِهَا الْخَارِجُونَ عَلَى الدُّولَةِ، فَصَعَدَ إِلَى جَبَلِ أُورَاسِ وَفِيهِ مِنْ الْقَبَائِلِ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ دَخَلَ فِي طَاعَةِ آبَائِهِ فَبَأْيَعُوهُ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ الْمُخَالِفُونَ يَتَقَرِّبُونَ إِلَيْهِ لِمَا أَنْسَوهُ مِنْ مُودَتِهِ وَكَرْمِهِ.

وأَظْهَرَ مَا ظَهَرَ مِنْ خَصَالِ الْمَعْزِ الَّتِي يَتَصَفُّ بِهَا بَنَاءُ الدُّولَ أَنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِالْتَّجَارِبِ وَالْعَبِرِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَحْسَنُ اصْطَنَاعَ الرِّجَالِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَجِيدُ الْفَرَاسَةَ فِي أَحْوَالِ الْأَمْمِ وَأَغْتَنَامِ الْفَرَصَةَ مِنْ بَيْنِهَا لِمَا يَتَرَقَّبُهُ وَيَعْقِدُ الْعَزِيمَةَ عَلَيْهِ..

فَلَمْ يَنْسِ هَزِيمَةَ الْأَسْطُولِ فِي الْحَمْلَةِ عَلَى مَصْرَ، وَلَمْ يَنْزِلْ حَتَّى أَمِنَ عَلَى شَوَّاطِئِهِ وَاسْتَطَاعَ بِقُوَّتِهِ الْبَحْرِيَّةِ أَنْ يَرْدِ أَسَاطِيلِ الرُّومِ عَنْ بَلَادِهِ وَعَنْ جُزُرِ الْبَحْرِ الْخَاضِعَةِ لِحُكْمِهِ.. ثُمَّ جَدَّ حَفْرَ الْأَبَارِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى مَصْرِ لِيَأْمُنَ قَطْعَ الزَّادِ وَالْمَاءِ عَنْ جَيْشِهِ.

وَمِنْ اصْطَنَاعِهِ لِلرِّجَالِ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَخْلِصُ الْخَدَامَ وَالْأَعْوَانَ وَلَا يَغَارُ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ بَيْنَ يَدِيهِ، بَلْ يَأْمُرُ الشُّعُرَاءَ أَنْ يَنْظُمُوا الْقَصَائِدَ فِي مَدْحُومِهِ وَيَأْذِنُ لَهُمْ أَنْ يَخَاطِبُوهُمْ بِهَا فِي حُضُورِهِ. وَكَذَلِكَ أَمْرُ شُعُرَاءِهِ أَنْ يَمْدُحُوا قَائِدَهُ جَوَهِرَ الصَّقْلِيَّ وَأَمْرُ الْعَظَمَاءِ وَالْكَبَرَاءِ أَنْ يَتَرَجَّلُوا عَنْ تَوْدِيعِهِ، وَلَمَّا تَمَّ لِجَوَهِرِ فَتْحُ مَصْرَ وَأَرْسَلَ وَكِيلَهُ الْكَتَامِيَّ جَعْفَرَ بْنَ فَلَاحَ لِفَتْحِ الشَّامِ تَخْطِي الْوَكِيلِ جَوَهِرَا عَنْ تَبْلِيغِ بِشَارَةِ الْفَتْحِ إِلَى الْمَعْزِ فَلَمْ يَبْدأْ بِإِبْلَاغِهَا إِلَى رَئِيسِهِ «الْمُبَاشِرِ» لِيَبْلُغَهَا مِنْ جَانِبِهِ إِلَى الْخَلِيفَةِ، فَغَضِبَ الْمَعْزُ عَلَى جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحِ وَرَدَ إِلَيْهِ كَتَبَهُ لِيَعِيَّدَهَا مِنْ طَرِيقِ جَوَهِرِ إِلَيْهِ.

ومن اصطناعه للرجال أنه كان يغفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع في نفوسهم الأمان والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبة، ومن المشهور عنه أنه كان إذا لقى أحداً من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه، ولعل هذا كان سبب الإشاعة التي تواترت بين الرهبان والقossos يتنصره وبقائه على النصرانية، فإن الخبر الذي جاء في كتاب «الخريدة»^(١) النفيسة في تاريخ الكنيسة لأحد الرهبان يقول إنه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن في مقبرة أبي سيفين، ويقال في سر ذلك إنه تحدى البطرق إيرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبار وقادة الجناد ورؤساء الدواوين.

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الإشاعات، فإن الخليفة المعز أمر قائد جوهر إلا يتعرض لمخالف في الدين ولا في المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبها، وأطاع جوهر مولاه، فبني الدير الذي عرف بدير الخندق بدليلاً من الدير الذي أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبناء القاهرة، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع^(٢) وجدد كنيسة «مركوريوس» التي تسمى بكنيسة أبي سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفي يديه سيفان) .. وقيل إنه أمر بإقامة البناء على المجنوب الذي أثار الدهماء استنكاراً لبنيتها وألى ليبقين في حفرة الأساس حتى يقام عليه، فلم ينقذه من مصيره إلا شفاعة البطرق له عند الخليفة ..

فهذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من الترحيب في مجلسه بالمتناظرين في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الإشاعة عن مدفنه في مقبرة الكنيسة، ولعلها إشاعة نبتت بعد عصر المعز بعده سنين، يوم كانت هذه الإشاعة وما إليها موئل العزاء في أيام الخليفة الحاكم المخلوب، لمن كان يضطهدتهم من المخالفين وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنن.

* * *

ومن تفريسه في استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص أنه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة، وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه، وتلاحت الأنبياء بسوء الحال واستهداه الغلاء وفتك

(١) الخريدة: المرأة الحبيبة الطويلة السكوت. والعذراء.

(٢) البيع: جمع بيعة بكسر الباء. كنيسة المسيحيين.

اللوباء، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر. ومنه في رواية المقريزى أن صبية عرضت في مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار «فحضر إليه في بعض الأيام امرأة شابة على حمار لطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فإذا هي ابنة الإخشيد محمد بن طفج وقد بلغها خبر هذه الصبية، فلما رأتها شفتها حبا فاشترتها ل تستمتع بها».

قال المقريزى: «فعاد الوكيل إلى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الإخشيد مع الصبية إلى آخره فقال المعز: يا إخواننا! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتنتمي إليها، وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم، فانهضوا لمسيرنا إليهم...».

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليها، ولكن المعز - على خلاف المعهود من سياسة أسرته - حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله إلى مصر منعا للتبدل الذي شاع فيه على آخر أيام الإخشidiين، وتطهيرًا للأخلاق مما أصابها في تلك الأيام وأدرك منه المعز أنه نذير بزوال ملك بنى الإخشيد.

وقدم جوهر إلى مصر في سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسلیم أن يؤمنهم على عقائدهم ومالوفاتهم، فكتب لهم عهد أمانه الذي قال فيه «ذكرتم وجوها التمسّم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم وتطمّينا لأنفسكم، فلم يكن في ذكرها معنى ولا في نشرها فائدة؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين بعدهم.. ولكن على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتتأكد على الأيام وكرور الأعوام...».

ووضع جوهر أساس القاهرة، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم - وهي شهرة صحيحة - فقالوا إنها سميت بالقاهرة: لأن المهندسين أقاموا على أساسها حبلا وعلقوا في الحبال أجراسا ليسمعها العمال

عند حلول الرصد المطلوب، وإن غرابة وقع على الحال والمريخ في الفلك فاهتزت الحال وأخذ العمال في وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذي يطلقه المنجمون على المريخ؛ لأنه كان في معتقد الأولين إلى الحروب!

* * *

هذه القصة «أولاً» تروى عن بناء الإسكندرية.

وهي «ثانياً» لا تعقل؛ لأن النجوم ترصد ليلاً والغربان لا تطير بالليل، ولو طارت ليلاً أو نهاراً لما كانت وقعة غراب على جبل كافية لدق الأجراس على جميع الأسوار، ولو كانت الأجراس تدق بهذه السهولة لدقق قبل وقوع الغراب على الجبل لأسباب كثيرة تحرك الحال كما تحركها هزة الغراب، ولو كان تحقيق الرصد مبنياً على العلم لا على الروية لأمكن أن يبدأ التأسيس في ساعة معلومة بغير حاجة إلى الأجراس.

ثم من قال إنه غراب وهو مجهول؟ وكيف عرفوه، والمظنون أن المهندسين هم الذين حركوا الحال؟ ولم لا يكون طيراً آخر أو جملة من الطير؟

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون، وفي التنبيه إلى ما فيها من الإحالات^(١) عبرة لمن يصدق السمعة التي تخلقها الأقاويل من هذا القبيل.. واتبع جوهر سنة دولته في تخطيط المدن وتشييد العمار، فإنهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئاً فشيئاً قبل مطالبتهم بتغيير ما توارثوه وثبتوا عليه، فشرع جوهر في بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء في أرجح الأقوال، وكأنه أراد أن يستغني بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطاع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق، وكلتاهما - أي القطاع والفسطاط - كانت عاصمة للقطر في أوانها، واستحدث الأمراء بعد خراب القطاع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معلقاً ومقاماً كدأبهم في تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا إليه.

* * *

(١) الإحالة: أحال الرجل: أتى بالمحال وتكلم به.

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التي أعدت لإقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم إلى الإسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين إليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلاً إنه لم يقصد إلى مصر طمعاً في زيارة ملك أو مال وإنما قصد إليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الإسلام، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان في برنامج المعز خطة تملتها الضرورة عليه؛ لأن تأمين الطريق إلى الحجاز كان ضماناً لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها؛ إذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية يشيرون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملاً بمنصب الإسماعيليين ويزعمون أن الإسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض، فكان تأمين طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضي بها مصلحة الحاكم والمحكوم، ولم يلبث المعز في القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه، وزحفت جموعهم إلى مصر ومعها قبائل البدارية التي تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق، فاستعد لهم المعز بعده الحيلة حقناً للدماء وأرسل إلى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائي من يطعمه بالمال إذا تراجع وتنحى عن أصحابه، ووعده بمائة ألف دينار.. فقبل الصفقة، وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند التقائه الصدوف، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير.. ولكنها لم تحوم من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبة يخفى فيها الرزيع المخدوع جمِيعاً عن شركائه، ودارت الدائرة على القرامطة في ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمة بالإياب ودبوا المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها إلى غاراتهم على مصر.

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (في سنة ٣٦٥ للهجرة) فإن ابنه العزيز الذي تولى الملك بعده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها إلا عجل بقمعها وأعاد الأمور في أرجاء الدولة إلى نصابها، ولكنه مات (سنة ٣٨٦). وقد بدأت في أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التي اختفت إلى حين في إبان نصرة الدولة وزهوها، ثم برزت وتفرعت مع إدبار الأمور وتعاقب الضعفاء من الأمراء..

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة في شخص إنسان، لو لم يكن تاريخه خبراً يقيناً لشك فيه المؤرخون أو جزمواً بإنكاره، إذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضاً ولا يتصور العقل لأول وهلة أنها تصدر من إنسان واحد.

ذلك هو الحاكم بأمر الله..

كان يعمر ويخرب، وكان يلين ويقوس، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها.. وكان يحرّم المباح ويبيع الكفر البواح، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل، فمن فتح دكاناً بالنهار جلده ومن أغلق دكاناً بالليل رماه بالعصيان، وكان يعتق العبيد والإماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء، كان يخرج إلى غيران الجبل في الظلام ويختبئ في حجرات قصره منذ مشرق الشمس إلى المغيب، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه، ثم يحاسب على الصفائر التي يغفرها المتنطسون..

قال ابن خلدون: «إن حاله كان مضطرباً في الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة». وقال ابن خلكان: «إنه كان جواداً سمحاً، خبيثاً ماكراً، رديءاً الاعتقاد، سفاكاً للدماء، قتل عدداً من كبراء دولته صبراً، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها...».

ولم يذكر عن ملك في أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاكم بأمر الله، وبأمره، وبأمر المأموريين والأمراء.

فمن مؤرخي القبط من يقول إنه مات على النصرانية، ومنهم من يقول إنه كان يعبد المريخ ويتوهم أنه يراه ويتحدث إليه، ومن مؤرخي السنة من يقول إنه ادعى الربوبية، ومن أتباعه اليوم من ينفي الموت عنه ويزعم أنه صعد إلى السماء ليعود إلى الأرض في آخر الزمان، وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات.

وفي رأينا بعد هذا أن سيرة الحاكم هي أتعجب السير وأوضحت السير في وقت واحد..

هي أعجبها في موازين النصوص والأوراق، وهي أقلها عجبا في ميزان علم النفس الذي لم ينفصل عن التاريخ قط في الكلام عن دولة كما انفصل عنه في الكلام على ملوك هذه الدولة.

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل أنها حالة من حالات الـ ^(١) *Mystic Hallucinosis* بالأسرار أو الحالات التي تعرف بـ *الغموض*.

وأصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار، يفرطون في التفاؤل والتشاؤم لإيمانهم بالرموز واعتقادهم أن الغيب يتحدث إليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التي تحمل في أطواها ما ينم عليه ظاهرها للعارفين، وإذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التي تختلط بمرض الاضطهاد، فيقع في روع المريض أن الناس يضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع، وينتقم منهم للوهم العارض والشبة الكاذبة؛ لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح.

ويسكن المتهوسون بالأسرار إلى مناظر الظلام، ويستهويهم الليل بخفاءه، وتروقهم الوحدة في الخلوات..

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهلاً بالحس عما حوله في جميع الأوقات، بل هي نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع إبداع العباقرة والموهوبين في بعض الفنون.

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم إلى صدمات الطفولة وأزماتها التي ترتبط بالجنس على الخصوص، فتكمن في الوعي الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويداً رويداً في مقبل الشباب.

وغير «الفرويديين» يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر، فيتوهم المريض أنه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه، ويحدث أحياناً أن ينظر إلى الشيء الماثل فلا يراه ويصغي إلى الصوت البين فلا

Mystic Hallucinosis. (١)

يسمعه، وقد يتفقون مع جماعة فرويد في الرجوع بالعلة إلى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية.

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التي تندس فيها الآفات إلى نفس الطفل الناشئ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا في عهد دسائس القصور وسياسة الحرير، وتركه أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايتها ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا في دسائس القصور وسياسة الحرير.

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو في سن الخطر؛ لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله، ولم يكن من الفتولة بحيث يدرك ما يحيط به ويمك الوسائل إلى استطلاعه. كان في الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتلطع وتوسوس له بالريبة والتساؤل. فإذا كان مع هذا قد نشأ في بيئه التنجيم وكبر وهو يصغى إلى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الغيوب التي تنكشف للواصلين من الأئمة، فلا عجب في ابتلائه بتلك الآفة، آفة الهرس بالأسرار أو الولع بوساوس الغموض، ثم يجهز على البقية الباقيه من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف في نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون في استغلالها ويبالغون في تحسينها وتزيينها، كما فعل الدرزي والأخرم من حاشية الحاكم المقربين؛ إذ قيل إنهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخطابوه مخاطبة الأرباب، وأطبقت آفة الاطلاع المضل على آفة الاستطلاع المكبوت..

ولم يكن الحاكم من المسرفين في الشهوات فتختل أعصابه من قبل الإسراف، ولم يكن يعاور الخمر أو يستطيعها بل كان يحرمنها وينهى عنها، ولم يشرب النبيذ إلا بإلحاح طبيبه الذي خطر له أن يعالجه بإدخال السرور إلى نفسه في مجالس الغناء مع يسير من الشراب، وإنما «عرض له كما قال الطبيب يحيى الأنطاكي في تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس في دماغه، وهو مزاج المرضى الذي يحدث في المآلنخوليات، واحتاج في مداواته منه إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به، وإن كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان

الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره، وإن أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أنسطاس لما خدمه استماله إلى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغاني بعد هجره لها ومنع الكافة منها، فانصلحت أخلاقه وترتبط مزاج دماغه واستقام أمر جسمه، ولما مات أبو يعقوب وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع إلى ما كان عليه».

تلك هي خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس، ولا يصور لنا فيها شيئاً من تلك الأعاجيب التي يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق، فإن طفلاً يصاب بالتشنج وتحيط به في سن المراهقة دسائس القصور التي تحيط بالملوك الصغار، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف في نفسه الحائرة - غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التي ينساق فيها على الرغم منه أو التي ينساق فيها مختاراً؛ لأنه يتوهم أنه يروض نفسه بالتقشف والتهجد^(١)، وحمل الناس عليها والتقرب إلى الله بعقارب من ينحرف عنها، فتنكشف له الحجب التي لا تزال مسدلة دونه، ويتهם نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص في الرياضة وقصور في العبادة، فلا يزال دهره بين خسوع العابد ومحاولة اليائس وقلق الحائر وإيمان المستريح إلى الظنون، ودعوى المصدق لما يلقي عليه مما يستريح إليه.

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت إحدى جرائر «الحرير» ودسائس القصور أو كانت نكتبه جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز في عاقبة التكثير من الزوجات والجواري وأخذت سياسة القصور تتشعب وتستشري^(٢) حتى تناولت كل شيء في الدولة والمجتمع، وكانت جرائرها آخر الأمر شرًا قائمًا بذاته وشرًا محسوباً عليه سائر الشرور؛ لأنه كان حائلاً دون اتقانها ومنعها كما كان حائلاً دون معالجتها بعد وقوعها.

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت^(٣) بينها نوازع الشقاق تبعاً لاختلاف الأحزاب في كل حريم، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من

(١) التهجد: القيام في الليل للصلوة.

(٢) تستشري: تشتت.

(٣) شجرت: تشابكت.

السودان إلى جانب القوة التي كانت لها من البرير والعرب، وأصبح حرس الأمن أول المزعجين للأمنين لأنفسهم وللقيادة والحكام.

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة في مصر حتى ابتليت بسياسة «البيروقراطية» أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحرير..

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء في سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وإن بلغوا مبلغ الرجال، فقد ركنا إلى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال إليهم كلما طلبوه، فقبضوا الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادر وجمع الإتاوات من الرشوة والإرهاب عدا ما يجمعون من الضرائب في غير موعد.

وال المصائب لا تأتي فرادى كما يقال، فإن الماجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصاب الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع، فحق عليها القول.

وقد سمي عصر الخليفة «المستنصر» بالعصر الذهبي في الدولة الفاطمية مع ما كان يتخذه من القحط والمجاعة والوباء، وما سمي عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئاً خلال ستين سنة قضتها على العرش منذ جلس عليه وهو في السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) إلى أن مات وهو يدلّف^(١) إلى السبعين، ولكنه كان عصراً كموم الحصاد الذي تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذي ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود.

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناء ولا من الهدامين، وإنما هو مهروم تتداعى تحته قواعد الملك، وقد يفارقها وهو قتيل..

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان في مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية، فلما استقر الرأى في أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي الملقب بالعاشر، تجاوحت المنابر بالدعاء الجديد ولم

(١) يدلّف: دلف الشیع: مشی وقارب الخطو.

يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء؛ لأنه كان يوجد بنفسه فى مرض الوفاة، فكانت سنة سبع وستين وخمسماة للهجرة هى خاتمة الأجلين: أجل الخليفة الذى عمر إحدى وعشرين سنة، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين.

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردین لينفرضوا بغير عقب، وقال المقرىزى عن صلاح الدين وال الخليفة الأخير: «وأضعف العاپد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاپد فى نقصان.. ومنع العاپد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة.. فلم يبق للعاپد سوى إقامة ذكره فى الخطبة.. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاپد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه إلى إرساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر...».

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين؛ لأنها من قسوة الزمن وجنائية الأسلاف على الأخلاف، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمعائب، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشتونة^(١)، وبين القضاء الذى يجريه صاحبه، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه، فرجحت كفة الإقبال وهو دائم الرجحان ودالت دولة الزوال فشالت^(٢) كفتها فى ميزان الزمان.

* * *

(١) المشتونة: المكرورة.

(٢) فشالت كفتها: شال الميزان، ارتفعت إحدى كفتيه على الأخرى.



حضارة متحضّرة

إذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى في أيام الفراعنة جاز أن يقال إن حضارة مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد، ولا استثناء لعهد البطالسة، لأنه عهد غلت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية، خلافاً للحضارة في أيام الفاطميين، فإن صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة، ومن ثم لم تتمكن في وطن آخر على هذه الصورة وبقيت مصر على مذهبها الديني الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها.

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقاييس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية.

فلم توجد في مكتبة بعد مكتبة الإسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التي وجدت في القصر الشرقي وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد و مليونين، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ، وقد كان فيها بعض الكتب عشرات من النسخ للإعارة أو الاطلاع..

وتنافست القصور في اقتناء الكتب النادرة، فكان في كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضية والطب وسائر العلوم..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين فيترجل ويخلع نعله، و تعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها في الرفوف.

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم، هذه للمعلمين وتلك للمتعلمين، وفتحت فيهما مجالس المعاشرة والمحاضرة، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء، وتنقل المعاشرة أحياناً إلى قصر الخليفة فيشتراك فيها أو يشرف عليها، ويأذن لكل ذي رأى أن يدلّى برأيه فيها، وإن خالف به إجماع الآراء..

وشاوست بين العامة ثقافتهم التي ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين

أو الشعراء المنشدين، يسمعون جميرة الناس طرفا من التاريخ الشعبي والقصص الشعبية، عدا مجالس الوعظ والتلقينية التي تفتح للقصاد في المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء.

وفي عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا في بناء الخزان عند أسوان..

وتقدمت الفنون والصناعات، وتنافس الفنانون والصناع في هندسة البناء، وفي النسخ على الجدران والحفريات على الحجارة الكريمة، وشوهدت رسوم على النسيج تحاكي اللوحات الفنية في دقة التصوير وجمال التلوين، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه في عصر من العصور، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النقيس بفضل الصناعة والإتقان.

وقد ألف الوصافون إذا بالغوا في وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور في تلك الحضارة، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هي الأعجب والأبدع من نسخة الخيال.

وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسيع والمزيد: تأتي السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببائعات المنتجات، أو تأتي ببائعات المنتجات وتعود بما هو أبدع وأغلى، دواليك في مواسم العام كله لا ترى ذاهبة آتية على مدى الصيف والشتاء.

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت إليها، فبعد إلغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز إلى القاهرة عادوا إلى الاحتفال به وأضافوا إليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع، وأحصى من مواسم العام غير رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبي ومولد الإمام ومولد آل البيت، ولليالي الوقود وهي ليالي من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل^(١) الصيام..

(١) نوافل: جمع نافلة، وهي عمل ما لا يجب عمله، كالصيام في غير شهر الصيام.

وتناظرت محاذيل الليل ومحاذيل النهار، ولا سيما في شهر رمضان ولليالي الأعياد، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويهدوا له الأسمطة^(١) ويخرجوا إليه يحيونه ويتلقون منه التحية، وأصبح الوافدون إلى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحاذيل والأسماك

ولم يكن قصارى ما في تلك المواكب أنها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة، بل هي كانت في حقيقتها معارض للفنون والصناعات، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يتزلفون بمقابر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها، ومن هذه المواكب ما يبقى إلى اليوم في زفة رمضان وزفة جبر البحرين، ومن تلك المحاذيل ما يبقى في طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالي الذكرى للأموات والزيارة للأحياء.

لا جرم كانت مصر إبان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقاصد، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء وال Kubra بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان في كل زمان ومكان، وأولهم السياح والشعراء.

فما من رحلة أنجبه العالم الإسلامي لم يتخذ من مصر مقاماً أو مزاراً في تلك الأيام، وما من قصر من قصور الملك في المشرق والمغارب عمر في ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء.

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالإيجاز لازدحام القالة وكثرة المقال، وزادوهم في الجزاء لكيلا يقال إنه قصد في العطاء لا قصد في الثناء، فقال أحدهم ابن مفرج، يخاطب الخليفة الحافظ:

أمرتني أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندي كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفات كعمارة اليمني الذي قال:

مذاهبيهم في الجود مذهب سنة
وان خالفوني في اعتقاد التشيع

(١) الأسمطة: جمع سماط، وهو ما يبسط ليمد عليه الطعام.

وهو الذى بخ^(١) نفسه على آثارهم وأوردها مورد ال�لاك أملًا فى نصرتهم واستعادة مجدهم، فهو أحق الناس ببرثائهم، وقصيده التى قيل فيها إنها أبلغ ما نظم فى رثاء دولة هي أحق ما نوَّدَ به عمرانهم المهجور:

لهم ولهم بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد
من الأعدى ووجهه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت
رحاكم وغدت مهجورة السبيل
أبكي على ما ترأت من مكارمكم
حال الزمن عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
والبيوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جيد عندهم ويلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كان لكم
فيهن من ويل جود ليس بالوشل^(٢)

(١) بخ: يخُّ نفسه: أهلكها.

(٢) الوشل: الماء القليل يتحلّب من صخرة يقطر قليلاً قليلاً.

والأرض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل^(١)
والخيال تعرض فى وشى وفي شيء
مثل العرائس فى حلى وفي حل
وما حملتم قرى الأضياف من سعة ألا
طباقي إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتيين وللض
يف المقيم وللطارى من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول
باب النجاة هم دنيا وأخرا
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبى لهم أبدا
ما أَخَرَ اللَّهُ لِي فِي مَدَةِ الْأَجَلِ
ولم يؤخر له فى الأجل، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة
وانقضى أجل شاعرها فى سنة تسع وستين وخمسمائة.
﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعْزِيزُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْذِلُ
مَنْ تَشَاءُ يَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

卷二十一

الفهرس

٣	تمهيد
٧	القسم الأول : فاطمة الزهراء
٩	أم الزهراء
١٧	نشأتها
٢١	زواجها
٢٣	بلاغتها
٣٩	في الحياة العامة
٤٥	وفاتها
٥١	شخصية الزهراء
٥٥	الذرية الفاطمية
٥٩	القسم الثاني: ... والفاتميون
٦١	الفاطميون
٦٧	النسب
٧٧	الباطنية
٨٩	الباطنية الفاطمية
١٠٧	حسن بن الصباح
١٢٣	السرية الباطنية
١٢٧	بناء وهدامون .. ومهدومون
١٣٧	المعز لدين الله
١٤٩	حضرارة متحضرة

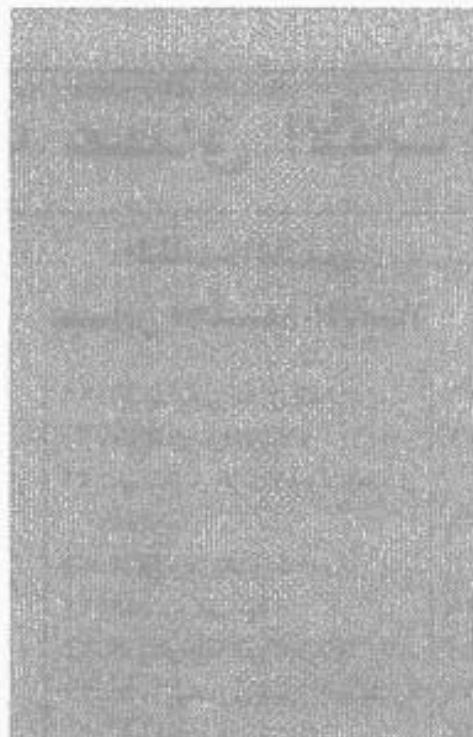
مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير عباس محمود العقاد

٥٦ - مع عاشر الجزيرة العربية.
٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة.
٥٨ - دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية.
٥٩ - آراء في الأدب والفنون.
٦٠ - بحوث في اللغة والأدب.
٦١ - خواطر في الفن والقصة.
٦٢ - دين وفن وفلسفة.
٦٣ - فنون وشجون.
٦٤ - قيم ومعايير.
٦٥ - الديوان في الأدب والنقد.
٦٦ - عيد القلم.
٦٧ - ردود وحدود.
٦٨ - ديوان بقظة الصباح.
٦٩ - ديوان وهج الظهيرة.
٧٠ - ديوان أشباح الأصيل.
٧١ - ديوان وحى الأربعين.
٧٢ - ديوان هدية الكروان.
٧٣ - ديوان عابر سبيل.
٧٤ - ديوان أعاصر مغرب.
٧٥ - ديوان بعد الأعاصر.
٧٦ - عرائس وشياطين.
٧٧ - ديوان أشجان الليل.
٧٨ - ديوان من دواوين.
٧٩ - هتلر في الميزان.
٨٠ - أفيون الشعوب.
٨١ - القرن العشرين ما كان وما سيكون.
٨٢ - النازية والأديان.

٢٩ - الإسلام في القرن العشرين.
٣٠ - ما يقال عن الإسلام.
٣١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصوصه.
٣٢ - التفكير فريضة إسلامية.
٣٣ - الفلسفة القرآنية.
٣٤ - الديمocrاطية في الإسلام.
٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية.
٣٦ - الثقافة العربية.
٣٧ - اللغة الشاعرة.
٣٨ - شعراء مصر وبيئاتهم.
٣٩ - أشتات مجتمعات في اللغة والأدب.
٤٠ - حياة قلم.
٤١ - خلاصة اليومية والشذور.
٤٢ - مذهب ذوى العاهات.
٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار.
٤٤ - الشيوعية والإنسانية.
٤٥ - الصهيونية العالمية.
٤٦ - أسوان.
٤٧ - أنا.
٤٨ - عبقرية الصديق.
٤٩ - الصديقة بنت الصديق.
٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية.
٥١ - مجمع الأحياء.
٥٢ - الحكم المطلق.
٥٣ - يوميات (الجزء الأول).
٥٤ - يوميات (الجزء الثاني).
٥٥ - عالم السدود والقيود.

١ - الله.
٢ - إبراهيم أبو الأنبياء.
٣ - مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية.
٤ - عبقرية محمد صلوات الله عليه.
٥ - عبقرية عمر.
٦ - عبقرية الإمام.
٧ - عبقرية خالد.
٨ - حياة المسيح.
٩ - ذو التورع عن عثمان بن عفان.
١٠ - عمرو بن العاص.
١١ - معاوية بن أبي سفيان.
١٢ - داعي السماء بلال بن رياح.
١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي.
١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميين.
١٥ - هذه الشجرة.
١٦ - إيليس.
١٧ - حجا الضاحك المضحك.
١٨ - أبو نواس.
١٩ - الإنسان في القرآن.
٢٠ - المرأة في القرآن.
٢١ - عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده.
٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة.
٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندي.
٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي.
٢٥ - رجعة أبي العلاء.
٢٦ - رجال عرفتهم.
٢٧ - سارة.
٢٨ - الإسلام دعوة عالمية.



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتقنن بأفضل الخدمات عبر موقع البيع: www.enahda.com

